من أسرار النظم القرآني في سورة البروج

أ. د / طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة

أستاذ مساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر/ فرع دسوق

المـــقـــدمـــة

الحمد لله الذي بحمده يُسْتَفْتَحُ كلّ كتاب، وبذكره يُصَدَّرُ كلّ خطاب، والذي أنزل على عبده القرآن كلامًا مُؤَلَّفًا مُنَظَّمًا، ونزّله بحسب المصالح والوقائع مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا وجعله بالتحميد مُفْتَتَحًا، وبالاستعاذة مُخْتَتَمًا، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على أشرف إنسان، وسيد ولد عدنان، وحامل لواء الفصاحة والبيان، والذي أزال ببيانه كل إبهام، وعلى آله الأخيار، وذريته الأطهار، وصحبه الأبرار، وأتباعه ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

وبعد،،،

فإن كلام الله – ﷻ – هو البيان الإلهي المعجز الذي هَزَّ النفوس، وبهر الألباب، وأعيت فصاحته وبلاغته كل الفصحاء والبلغاء الذين وقفوا وقفة إجلال وتعظيم أمام إعجازه المتفرد المضطرد، والذي أنزله على نبيه – ﷺ – نورًا هاديًا، وبيانًا معجزًا شافيًا، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وأودع فيه الهدى والحق، وأبان فيه العلم، وأنطقه بالحكمة وفصل الخطاب، فأقبل عليه العلماء المخلصون وأساطين البيان، وعكفوا في محرابه المعجز ينهلون من معينه الذي لا ينضب، ويَعِبُّون من ينبوعه الذي لا يغيض، ويرتشفون من رحيقه المختوم؛ لأن دوام التدبر والتفكر في آياته، وطول البحث والتأمل في أسراره من أنفع ما ينتفع به المرء في دينه ودنياه، ومن أعظم ما يتقرب به العبد الفقير إلى مولاه.

والبحث في بلاغة القرآن الكريم ونظمه وإعجازه من أجلّ نِعَم الله – ﷻ – على الإنسان وأعظمها، فهو أفضل ما تفنى فيه الأعمار، وأجمل ما تصرف فيه الأوقات، وهو غاية الغايات من دراسة هذه اللغة على اختلاف مناحيها؛ لأن السبيل إلى إدراك سرّ إعجاز القرآن ونظمه وبلاغته المتفردة يكمن في معرفة لغة العرب وفهمها وإدراك حقائقها وأسرارها، وقد أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين، وأودع فيه من الأسرار ما لا تشبع منه العلماء، ومن الدفائن والمكنونات ما لا تنقضي عجائبه، وسخر له من عباده

منذ نزوله من يقوم على خدمته حفظًا، وفهمًا، وتأملًا، وتذوقًا، ودراسةً آناء الليل وأطراف النهار إلى قيام الساعة.

هذا، ولقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، وحَفَزَني إلى دراسته عدة دوافع، كان من أهمها ما يلي :

١ – لقد سبق لي أن قمت بإعداد بحث بعنوان (البيان النبوي في حديث الغلام والراهب والساحر" دراسة بلاغية تحليلية)[١]، وقد تضمن هذا الحديث قصة أصحاب الأخدود، وقمت بدراسته دراسة بلاغية تحليلية مبرزًا ما فيه من أسرار بلاغية، وفوائد بيانية، ولطائف علمية، أسهمت في بلاغة هذا الحديث شكلًا ومضمونًا، وأردت هنا أن أتناولها في القرآن الكريم؛ لكي تكتمل الصورة لدى القارئ، وتتضح أمام ناظريه.

٢ – ما اشتملت عليه سورة " البروج " من أحكام، وإشارات، ودروس عقدية تحتاج إلى استجلاء ما انطوت عليه من أسرار بلاغية، واستكشاف ما أودع فيها من رموز بيانية، وفوائد تربوية، يقول ابن القيم : " فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي مَنْ فَهِمَها "[٢]، هذا بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من بدائع النظم وفرائده.

٣ – عدم وجود دراسة بحثية مستقلة تتناول هذه السورة بالدراسة البلاغية التحليلية المنوطة باستخراج كنوزها ودفائنها، واستجلاء دررها وجواهرها، ووجدت هذا الموضوع بكرًا، ولم تعرض له إلا كتب التفاسير في جملة ما عرضت له من

---

(١) وهو بحث محكم ومنشور في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد الرابع والثلاثون / ١٤٣٥ هـ – ٢٠١٤ م

(٢) التبيان في أقسام القرآن / ٦٦ / مكتبة المتنبي / القاهرة / بدون تاريخ.

تفسير كتاب الله – ﷻ – من أوله إلى آخره على اختلاف مناهجها وتوجهاتها، وتنوع منازعها ومشاربها.

فشمرت عن ساعد الجد، وأخذت أجول ببصري وفكري في مصادر هذا البحث، وأغوص فيها بعقلي وقلبي قاصدًا البحث عن أسرار النظم القرآني في هذه السورة، وإدراك سر الإعجاز للاستخدام القرآني للغة العرب، والتعرف على ما يمتاز به هذا النظم المعجز، وذلك الاستخدام البديع الذي يستثير الأذواق، والذي تقصر البلاغة بحدودها المعروفة عن استيعابه، والإحاطة بأطرافه.

وقد واجهتني في هذا البحث بعض الصعوبات من أهمها أن البحث في بلاغة الكتاب العزيز ونظمه يعدّ من الصعوبة والخطورة بمكان، فهو مسئولية عظمى تحتاج إلى صبر وتؤدة واطمئنان ويقين، حيث يقف الإنسان بضعفه البشري، وعجزه الإنساني تجاه البيان الإلهي الخالد تحيط به الرهبة والخشية خوفًا وتوجّسًا من أن تخطّ يداه ما لا تحمد عقباه؛ ولذا فالمهمة شاقة، والأمانة عظيمة، والباحث في هذا النظم المعجز محفوف بالمخاطر إلا من عصمه الله، وحاطه بعنايته، ورزقه التوفيق، وخلصت نيته، وسلمت طويّته؛ وذلك لما اشتمل عليه الوحي الإلهي من دقائق الأسرار واللطائف، وبديع الرموز والفوائد، هذا بالإضافة إلى ما يترتب على فهم البيان القرآني المعجز من أحكام عقدية أو تشريعية، الأمر الذي كاد يثنيني عن هذا البحث لولا عناية ربي – ﷻ – ثم ما وجدته في تذوق هذا النظم المعجز من أسرار ولطائف تقدح زِناد الفكر، وتشحذ الذهن، وتسحر القلب، وتأسر النفس، الأمر الذي يغري بالمضيّ في الدراسة والإفاضة فيها.

وتسعى هذه الدراسة إلى تعزيز الوعي البلاغي والجمالي لتذوق النص القرآني المعجز تذوقًا جماليًّا، واستلهام ما فيه من إعجاز بياني آسر، والكشف عن ملامحه البلاغية والأدبية المتآزرة والمتعاضدة، ودراسته دراسة بلاغية تحليلية وفق رؤية تراعي مصدره الرباني ووضعه المقدس مع الأخذ في الحسبان خصوصيته التي تميزه عن

غيره من النصوص البشرية، هذا بالإضافة إلى إبراز أهمية الدور البلاغي في الكشف عن جماليات النظم القرآني، وحقائق أسرارها معتمدًا في ذلك على المنهج التطبيقي التحليلي القائم على التذوق الجمالي للآية القرآنية في سياق النص كاملًا، بحيث يبدو النص متناسقًا ومترابطًا ومتآزرًا في تحقيق غايته في التأثير والإقناع والإمتاع.

وبوحي من إيماننا العميق بإعجاز القرآن الكريم إعجازًا بيانيًّا، وقدرة هذا الكتاب المعجز على بعث هذه الأمة من غفوتها، والنهوض بها من كبوتها، وإحياء مجدها التليد، فقد عقدت العزم على كتابة هذا البحث في سورة من سوره؛ لعلي أستطيع إيضاح بعض ما اشتملت عليه من أسرار الإعجاز، وما تضمنته من بدائع وفرائد، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة فقد بيّنت فيها منهج هذه الدراسة، وأهمية هذا الموضوع، وأهم الأسباب والدوافع التي دعتني إلى اختياره.

وأما التمهيد فقد اشتمل على التعريف بسورة " البروج " من حيث تسميتها، ونزولها وترتيبها، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها، ومناسبتها بما قبلها، وأهم الأغراض والمقاصد التي اشتملت عليها.

وأما المبحث الأول فقد اشتمل على الآيات التسع الأُوَل، وهي تتحدث عن عظمة الله – ﷻ – في بديع خلقه، وكمال قدرته، وعظيم حكمته.

وأما المبحث الثاني فقد تضمن الآيتين العاشرة والحادية عشرة، وهما مشتملتان على عقاب الظلمة المعتدين وثواب البرَرة الموحِّدين.

وأما المبحث الثالث فقد احتوى على خمس آيات من الآية الثانية عشرة إلى الآية السادسة عشرة، وفيها تأكيد للوعد والوعيد اللذين تضمّنهما المبحث السابق.

وأما المبحث الرابع فقد اشتمل على ست آيات من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والعشرين، وفيها تسلية للرسول – ﷺ – وموعظة للمتقين.

ولقد تناولت الآيات التي اشتمل عليها كل مبحث من هذه المباحث على حدة تناولًا موضوعيًّا بلاغيًّا بالدراسة والتحليل، فوقفت مع كل كلمة أو جملة أو أسلوب لإبراز الدلالات والإيحاءات، وكَشْف الوجوه والنكات البلاغية، وبيان الأسرار والرموز البيانية، وإيضاح الإشارات واللطائف والفوائد التي يوحي بها التعبير، وينم عنها الأسلوب، وتناولت كذلك علاقة كل جملة أو آية بغيرها فصلًا ووصلًا، وبيان الأسرار والرموز التي تضمّنها هذا الفصل، هذا بالإضافة إلى إيضاح ما انطوى عليه من عبر وعظات وفوائد يجب أن يتحلى بها كل مؤمن.

وأما الخاتمة فقد أودعت فيها أهم النتائج التي أسفر عنها هذا البحث.

وبعد، فهذا جهدي – وهو جهد المقلّ – الذي لا أدعي له الكمال، فالكمال لله – ﷻ – وحده، والنقص من سِيَم البشر، وإنما هو محاولة لها ما بعدها، وسيظل كتاب الله الخالد بيانًا فيّاضًا، وينبوعًا لا ينضب، ومتى يبلغ ضعف سعينا وقاصر جهدنا نهاية ما لا يتناهى، يقول سهل بن عبد الله : " لو أُعْطِيَ العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كلّ بمقدار ما يفتح الله على قلبه، وكلام الله غير مخلوق، ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم مُحْدَثة مخلوقة"(١).

(١) التفسير البسيط ١ / ٤٢٨ / الواحدي / تحقيق : د / محمد صالح الفوزان / ضمن مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / سلسلة الرسائل الجامعية / ١٤٣٠ هـ.

التمهيد

ويشتمل على عدة نقاط هي كالتالي:

أولاً:– نص السورة : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)﴾

ثانيًا – تسميتها : لقد اتفق العلماء على تسمية هذه السورة في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير بـ " سورة البروج ".

وذكر محمد الطاهر بن عاشور أنها تسمى سورة " السماء ذات البروج " مستدلاً بالحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله – ﷺ – " كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج "، يقول : " وهذا ظاهر في أنها تسمى سورة " السماء ذات البروج "؛ لأنه لم يحك لفظ القرآن، حيث لم يذكر الواو" [(١)].

(١) التحرير والتنوير ٣٠ /٢٣٦ / الدار التونسية / تونس /١٩٨٤م، وينظر : التفسير الوسيط ١٥/٣٤١ / د/ محمد سيد طنطاوي / دار نهضة مصر / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٩٩٨م.

ثالثًا – نزولها وترتيبها : نزلت هذه السورة في مكة باتفاق بعد سورة " الشمس " وقبل سورة " التين "، وهي معدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السور، وترتيبها في المصحف الخامسة والثمانون من سور القرآن الكريم.

رابعاً – عدد آياتها وكلماتها وحروفها : تشمل هذه السورة على اثنتين وعشرين آية، ومائة وتسع كلمات، وأربعمائة وثمانية وخمسون حرفًا [١].

خامسا – مناسبتها بما قبلها : يرجع وجه مناسبتها لسورة الشرح قبلها إلى " اشتمالها كالتي قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين مع التنويه بشأن القرآن وفخامة قدره " [٢].

وذكر أبو حيان أن الله – ﷻ – " لما ذكر أنه – تعالى – أعلم بما يجمعون للرسول – ﷺ – وللمؤمنين من المكر والخداع وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس وإحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه، ذكر أن هذه الشِّنْشِنة كانت فيمن تقدم من الأمم يعذبون بالنار، وأن أولئك الذين أعرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم أو يحرموا، وأن أولئك الذين عذبوا عباد الله ملعونون، فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من قريش ملعونون. فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يُعَذَّب " [١].

وذكر برهان الدين البقاعي أن الله – ﷻ – لما ختم سورة الانشقاق بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين وأنه – جل شأنه – أعلم بما يضمره أعداؤه من المكر

---

(١) باب في علوم الكتاب ٢٠ / ٢٤٤ / ابن عادل الدمشقي / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م.

(٢) روح المعاني ٣٠ / ٨٤، ٨٥ / الألوسي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الرابعة / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٤٢، ٤٤٣ / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م.

بأوليائه، وما أوقعوه بهم من ألوان التعذيب، وضروب الإيذاء، والتضييق عليهم، ومحاصرتهم، ابتدأ هذه السورة بما أوقعه بأهل الجبروت والطغيان ممن تقدمهم بعباده الصالحين إعلامًا منه – ﷻ – بأن هؤلاء الجبابرة والطغاة كانوا أظلم وأطغى مما فعله كفار قريش بالرسول – ﷺ – وأصحابه – ﷺ –وتسلية وتثبيتًا للمؤمنين، ووعيدًا وتخويفًا للكافرين [1].

سادساً – أغراضها ومقاصدها : تدور هذه السورة – وهكذا كل سورة من سور الكتاب العزيز – حول مجموعة من الأغراض العظيمة، والمقاصد الجليلة، وهي على النحو التالي :

١ – ضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مثل قوم فتنوا فريقًا من المؤمنين بالله، وأحرقوهم بالنار في الأخدود، وذلك تسلية وتعزية وتثبيتًا وتصبيرًا للرسول – ﷺ – وللمؤمنين، وتشجيعًا لهم على تحملهم أذى المشركين، وتذكيرًا لهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب دون أن يصدهم ذلك عن دينهم، وإعلامًا لهم بأن تلك الشِّنْشِنة كانت فيمن تقدم من الأمم.

٢ – إشعار المسلمين وإعلامهم بأن قوة الله عظيمة، وإرادته نافذة، الأمر الذي يقتضي أن المشركين والطغاة سيلقون جزاء سوء صنيعهم، وأن المسلمين سيحالفهم النصر والتمكين، ويلقون الأجر العظيم والنعيم المقيم.

٣ – التعريض للمسلمين بما لهم عند الله – ﷻ– من كرامة وزلفى وسعادة بالفوز الكبير بالحسنى وزيادة.

٤ – ضرب المثل بقوم فرعون وثمود، وكيف كان حالهم ومآلهم وعاقبة أمرهم حتى صاروا عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) نظم الدرر ٢١ / ٣٥٢، ٣٥٣ / دار الكتاب الإسلامي / القاهرة / بدون تاريخ.

٥ – التنويه بشأن القرآن المجيد العظيم الذي تكفل الله – ﷻ – بحفظه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد [١].

❁❁❁❁

(٣) نظم الدرر ٢١ / ٣٥٢، ٣٥٣، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٣٦، ٢٣٧.

المبحث الأول
عظمة الله وقدرته

قال تعالى : " وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ[١] (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ

(١) الأخدود : الشِّقّ المستطيل العظيم في الأرض، والجميع الأخاديد. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٢ / ابن الأثير / تحقيق : طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي / المكتبة العلمية / بيروت / ١٣٩٩ – ١٩٧٩ م، لسان العرب / مادة : خدد / ابن منظور / دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م، وذكر المفسرون وشرّاح الحديث أقوالًا كثيرة في المراد بأصحاب الأخدود، وملخص ذلك أن ناسًا من الكفار خدّوا أخدودًا في الأرض، وسجروه نارًا، وعرضوا المؤمنين الموحدين عليها، فمن رجع عن دينه تركوه، ومن أصر على الإيمان أحرقوه. ينظر : جامع البيان ٢٤، ٢٧٠ – ٢٧٦، للطبري / تحقيق د / عبد الله بن عبد المحسن التركي / دار هجر / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م، تفسير القرآن العظيم / ١٤ / ٣٠٥ – ٣١٢ / ابن كثير / تحقيق : مصطفى السيد محمد، ومن معه / مؤسسة قرطبة / جيزة / مصر، مكتبة أولاد الشيخ للتراث / جيزة / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م، صحيح مسلم / كتاب الزهد والرقائق / باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام / رقم : ٣٠٠٥ / ٤ / ٢٢٩٩ / مسلم بن الحجاج النيسابوري / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون تاريخ، تحفة الأحوذي / كتاب التفسير / باب تفسير سورة البروج / رقم : ٣٣٩٨ / ٩ / ٢٦٠ – ٢٦٥ / محمد بن عبد الرحمن الأحوذي / تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان / دار الفكر / بيروت / بدون تاريخ، السنن الكبرى / كتاب التفسير / تفسير سورة البروج / رقم : ١١٥٩٧ / ١٠ / ٣٢٩ – ٣٣١ / النسائي / تحقيق : شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م. وقد سبق لي بحث في دراسة حديث الغلام والراهب والساحر الذي تعرض لهذه القصة، وهو منشور ضمن حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق / العدد الرابع والثلاثون / ١٤٣٥ هـ – ٢٠١٤م.

عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ".

إن المتأمل في هذه الآيات البينات يجد أنها تتحدث عن أمر عظيم، وحدث جَلَل، وهو تلك الفعلة الشنيعة التي قام بها هؤلاء الكفار الجبابرة العتاة تجاه أولئك المؤمنين المُوَحِّدِين، وبناء على ذلك فقد افتتح الله – ﷻ – هذه السورة الكريمة المباركة بهذا القسم بتلك الأمور العظيمة الجليلة، وهي السماء ذات البروج، واليوم الموعود، والشاهد والمشهود؛ ليتناسب أمر المقسم به مع أمر المقسم عليه، وذلك أُسّ البلاغة، وأساس البراعة، وأعرب الشيخ ابن عاشور عن بلاغة افتتاح هذه السورة بالقسم فقال: " في افتتاح هذه السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده، وإشعار بأهمية المقسم عليه، وهو مع ذلك يلفت السامعين إلى الأمور المقسم بها؛ لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرد الله – تعالى – بالإلهية، وإبطال الشريك، وبعضها مُذَكِّر بيوم البعث الموعود، ورمز إلى تحقيق وقوعه، إذ القسم لا يكون إلا بشيء ثابت الوقوع، وبعضها بما فيه من الإبهام يُوَجِّه أَنْفُس السامعين إلى تطلب بيانه"(١).

كما أوضح أيضًا المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه هنا، فذكر أن المقسم عليه تضمن العبرة والعظة بقصة أصحاب الأخدود، وأنه لما كانت الأخاديد خطوطًا في الأرض مُسْتَعِرة بالنار أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجًا، وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم الساطعة الشبيهة بتلهب النار، ولأن اليوم الموعود هو يوم القيامة مع ما في القسم به من إدماج الإيمان إلى وعيد أصحاب القصة المُقْسَم على مضمونها ووعيد

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٣٧.

أمثالهم المعرَّض بهم، وأن مناسبة القسم بالشاهد والمشهود قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود(١).

وبَيَّنَ ابن القيّم وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها فقال : " والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود " (٢)، والله – ﷻ – إذا أقسم بشيء من خلقه فإنما يقسم به؛ ليلفت الانتباه إليه، ولينبه على جلالة قدره، وعظمة شأنه، ولعل هذه الأشياء التي أقسم الله بها في بدء هذه السورة كانت مما يعرف السامعون خطورته ومداه.

وتعريف " السَّمَاءِ " بلام الجنس للدلالة على الجنس، أي كل السموات، أو جنسها الشامل لكل سماء، أو للدلالة على العهد، أي سماء الدنيا المعهودة إلينا (٣).

وفي التعبير بلفظة " الْبُرُوجِ " – بمعنى القصور – استعارة تصريحية حيث شبهت المنازل التي تنزلها الكواكب السيارة بالقصور العظام التي ينزل فيها الأكابر والأشراف بجامع العلوّ والعظم والجمال والظهور في كلٍّ، ولأن النجوم نازلة فيها كسكانها، ثم حُذِفَ المشبه، وصُرِّحَ بلفظ المشبه به، وفي هذا دلالة على عظم هذه

(١) السابق / نفس الجزء / ٢٣٧، ٢٣٨.
(٢) التبيان في أقسام القرآن / ٦١.
(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٢ / شهاب الدين الخفاجي / دار صادر / بيروت / بدون تاريخ.

البروج وفخامتها، وانطوائها على عجيب الحكمة، وكونها من أعظم آيات الله – ﷻ – ودلائل قدرته، وشواهد وحدانيته؛ ولذا فقد أقسم الله – ﷻ – بها [١].

وقيل: إن الاستعارة هنا مكنية[٢]، حيث شبهت السماء هنا بسور المدينة، ثم حذف المشبه به، وأتي بشيء من لوازمه – وهو البروج – وأثبت للمشبه – وهو السماء – وفي هذا الإثبات ضرب من التخييل، ولكن الحمل هنا على الاستعارة التصريحية أوضح وأظهر وأبلغ.

وفي عطف القسم باليوم الموعود – وهو يوم القيامة، وهو أمر غيبي – على القسم بالسماء ذات البروج – وهي مشاهدة للعيان – إبراز لهذا اليوم العظيم الموعود به في صورة الموجود المشاهد؛ ولذا يقول ابن القيم في شأن الإقسام بهذا اليوم : " فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان " [٣]، هذا بالإضافة إلى ما في الإقسام به من التعظيم له والتهديد لمنكريه.

وعُرِّفَ اليوم هنا باللام للدلالة على العهد، أي اليوم المعهود في أذهاننا، والذي أخبرنا الله – ﷻ – به في أكثر من موضع في كتابه العزيز، يقول الألوسي : " وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين"[٤].

وقد اختلف المفسرون في معنى " شاهد ومشهود " اختلافًا كثيرًا، ولعل الله – ﷻ – نَكَّرَهما وأبهمهما؛ ليشملا كل ما يدلان عليه، يقول ابن القيم : " ثم أقسم – سبحانه – بالشاهد والمشهود مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المُدْرِك

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٤ / محيي الدين شيخ زاده / تحقيق : محمد عبد القادر شاهين / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م، روح المعاني ٣٠ / ٨٥.

(٢) روح المعاني ٣٠ / ٨٥.

(٣) التبيان في أقسام القرآن / ٦٠.

(٤) روح المعاني / ٣٠ / ٨٦.

والمُدْرَك، والعالِم والمعلوم، والرائي والمرئيّ، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه الخصوص... فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل؛ لأنه لا سبيل إلى التخصيص بغير أثر صحيح"(١).

ويؤازر ما ذكره ابن القيم ما بين " شاهد " و " مشهود " من طباق يؤكد هذا المعنى ويوضحه؛ ولذا يقول الإمام الطبري بعد أن ذكر كثيرًا من أقوال العلماء في تفسير هاتين اللفظتين: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أقسم بشاهد شَهِدَ، وبمشهود شُهِدَ، ولم يخبرنا مع إقسامه بذلك أيّ شاهد وأيّ مشهود أراد، وكل الذي ذكرنا أن العلماء قالوا هو المعنيُّ مما يستحقّ أن يقال له: شاهد ومشهود"(٢).

ويحتمل أن يكون تنكير كلٍّ من " شاهد " و " مشهود " هنا للدلالة على التفخيم والتعظيم، أي شاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، ولا تدرك حقيقتهما، ولا يحيط بهما نطاق البيان(٣)؛ لأن التنكير أدلّ على التفخيم والتعظيم.

وبناء على رأي من فسّر المشهود بيوم القيامة يكون الله – ﷻ – قد كرر القسم به مع اختلاف العنوان للزيادة في تعظيم هذا اليوم وتفخيمه(٤).

ووجه اقتران القسم بـ " شاهد " و " مشهود " بالقسم بـ " اليوم الموعود " هو أن الله – ﷻ – لما ذكر اليوم الموعود – وهو يوم القيامة باتفاق – ناسب أن يكون المقسم

(١) التبيان في أقسام القرآن / ٦٠ – ٦٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٤ / ٢٧٠.
(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٢، روح المعاني ٣٠ / ٨٦.
(٤) السابق / نفس الجزء / ٨٧.

به بعده مَنْ يَشْهَد في ذلك اليوم ومَنْ يُشْهَد عليه إن كان ذلك من الشهادة، وإن كان من الحضور فالشاهد الخلائق الحاضرون، والمشهود هو ذلك اليوم الموعود [١].

وفي هذا القسم لون من التشويق، وضرب من الإثارة، وتحريك النفس، وتهيئة المخاطب لتلقي الخطاب، وتأكيده لديه، وتثبيته في ذهنه، وترسيخه في قلبه، وتقريره في وجدانه؛ ولذا فإن القسم يتقدم الأمور المهمة التي يحرص على تأكيدها وتثبيتها في وجدان المخاطبين، حيث إن القسم يلفت السامع، ويجذب انتباهه، ويحرك عاطفته، ويثير وجدانه حتى يصبح في شوق إلى الإحاطة بالجواب، وإدراك المعنى المقسم عليه[٢].

وجواب القسم هنا محذوف لدلالة قوله تعالى : " قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " عليه، والتقدير : لَنُثَوِّبَنَّ الفريقين الأولياء والأعداء، أو لندينَنَّ كلًّا بما عمل[٣]، أو إنهم لمقتولون كما قتل أصحاب الأخدود، فيكون ذلك وعدًا للنبي – ﷺ – بقتل الكفرة المتمردين لإعلاء دينه، ومعجزة بقتل رؤوسهم في غزوة بدر [٤]، أو غير ذلك مما يحتمله السياق؛ لأن هذه السورة الكريمة وردت لبيان شدة عداوة كفار قريش للمؤمنين واستحقاقهم بذلك لعنة الله– ﷻ – وعظيم سخطه، ولتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفرة المجرمين، وتذكيرهم بما جرى ممن تقدمهم، وتسليتهم وتثبيتهم بما وقع لأمثالهم، وفي هذا الحذف لون من إثراء المعنى، وضرب

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٣.
(٢) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه / ٤٥ / د / بسيوني عبد الفتاح فيود / مطبعة الحسين الإسلامية / الطبعة الأولى / ١٤١٤ – ١٩٩٣م.
(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٤٣، حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٨، روح المعاني ٣٠ / ٨٧، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٣٩، ٢٤٠.
(٤) روح المعاني ٣٠ / ٨٧.

من التشويق لذهاب النفس في تقديره كل مذهب يناسب السياق، هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من الإيجاز والاختصار.

وقيل : إن جواب القسم هنا هو جملة " قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " على تقدير حذف اللام وقد، والأصل لقد قُتِلَ، ويكون " قُتِلَ " هنا خبرًا لا دعاء، ويكون الإيجاز هنا بحذف لام التوكيد وحرف التحقيق جميعًا(١).

وقيل : إن جواب القسم قوله تعالى : " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْدٌ "، والكلام الذي جرى بينهما اعتراض قصد به التوطئة للمقسم عليه، وتوكيد التحقيق الذي أفاده القسم بتحقيق ذكر النظير(٢).

ويرى ابن القيم أن القسم هنا مستغن عن الجواب للدلالة على تعظيم تفخيم الجواب وتعظيمه، يقول : " والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب؛ لأن القصة التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة"(٣)، ولعل هذا – والله أعلم – هو الأنسب للمقام، والأقرب للسياق.

وأوضح محيي الدين زاده سرّ تعبير الله – ﷻ – عما أصاب أصحاب الأخدود من اللعن بالقتل في قوله – ﷻ – :" قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " فقال : " والقتل لكونه أغلظ العقوبات لا يقع إلا عن سخط عظيم يوجب الإبعاد عن الخير والرحمة الذي هو اللعن، فكان اللعن من لوازم القتل؛ فلذلك عبر به عن اللعن؛ لكونه أبلغ في التصريح

(١) السابق نفسه، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٥ / ٢٩٢ / محمود صافي / دار الرشيد / دمشق / بيروت، مؤسسة الرسالة / بيروت / لبنان / الطبعة الثالثة / ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٠.
(٣) التبيان في أقسام القرآن / ٦٢.

باللعن من حيث إنه بمنزلة إثبات اللعن بالبينة " (١)، وذلك بناء على أن القتل هنا على حقيقته، وأن جملة " قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " خبرية.

ويرى بعض المفسرين أن القتل هنا بمعنى اللعن والطرد لاستحالة الدعاء منه ﷻ، فأريد لازمه من السخط والطرد من رحمته ﷻ، وأن جملة " قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " هنا إنشائية بمعنى الدعاء على أصحاب الأخدود باللعنة والطرد من رحمته ﷻ(٢)، وبناء على ذلك يكون التعبير عن اللعن بالقتل هنا من قبيل الاستعارة التصريحية، حيث شبه اللعن بالقتل، ثم حذف المشبه، وصرح بلفظ المشبه به، واشتق منه " قُتِلَ "، يقول الشيخ ابن عاشور : " وقوله : " قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " تشعر بأنه إنشاء شتم خزي وغضب نحو قوله – تعالى – : " قُتِلَ الخَرَّاصُونَ " (٣)، وقولهم : قاتله الله، وصدوره من الله يفيد معنى اللعن، ويدل على الوعيد؛ لأن الغضب واللعن يستلزمان العقاب على الفعل الملعون لأجله "(٤)

وبَيَّنَ محيي الدين زاده دلالة الإخبار عن أصحاب الأخدود بأنهم ملعونون هنا فقال : " والإخبار بأن أصحاب الأخدود ملعونون لقوة عنادهم ومبالغتهم في إيذاء المؤمنين يدل على أن كفار مكة أيضًا ملعونون للاشتراك في العلة، وهي الإصرار على الكفر والعناد والمبالغة في إيذاء المؤمنين، وسلوك طريق الكناية أبلغ من التصريح، وأدخل في إفادة التسلية"(٥).

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٧.
(٢) نظم الدرر ٢١ / ٣٥٥، روح المعاني ٣٠ / ٨٧.
(٣) الذاريات : ١٠.
(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٠.
(٥) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٧.

وقرأ الحسن وابن مقسم " قُتِّلَ " – بتشديد اللام – وفي هذا دلالة على المبالغة أو التكثير في لعنهم لعظم ما أتوا به، وشنيع ما صنعوا، وسيئ ما اقترفوا، وقبيح ما اجترحوا [١].

وفي التعبير عن هؤلاء العصاة الجبابرة الذين عذبوا أولئك المؤمنين الموحدين بلفظ " أصحاب " دلالة على الاقتران والملازمة، فذكر الأصحاب مقارن لذكر الأخدود وملازم له، وهو يعم الآمرين بجعل الأخدود والمباشرين لحفره، والقائمين على إلقاء المؤمنين فيه[٢].

واستخدم القرآن الكريم هنا لفظة " أصحاب " بدلًا من " أولو "؛ لأن لفظة " أصحاب " تضاف إلى ما هو منفصل عن المضاف وليس جزءًا منه، أما " أولو " فإنها تضاف إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجزء منه[٣].

وبعد أن أوضح الحق – ﷻ – مصير هؤلاء الظلمة الطغاة وأولئك الجبابرة العتاة بيّن بأسلوب بدل الاشتمال المقصود بالأخدود، والضمير العائد على المبدل منه محذوف تقديره: النار ذات الوقود فيه، أي في الأخدود المشتمل على النار، ويحتمل أن يكون البدل هنا بدل كل من كل على تقدير محذوف، أي أخدود النار[٤]، وتتجلى قيمة البدل هنا في الإيضاح والتفسير بعد الإبهام، والبيان بعد الإجمال، هذا بالإضافة إلى

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٣، اللباب في علوم الكتاب ٢٠ / ٢٤٧ ، روح المعاني ٣٠ / ٨٩.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤١.
(٣) دراسات جديدة في إعجاز القرآن / ٣٤، ٣٧ / د / عبد العظيم المطعني / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م.
(٤) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، روح المعاني ٣٠ / ٨٩، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢.

ما في البدل من التوكيد، حيث إن البدل بمثابة التكرار للمبدل منه، إلا أن البدل هو المقصود بالحكم [١].

وقرأ قوم " النّارُ " بالرفع، وذلك على اعتبار أنها فاعل لفعل محذوف تقديره: "قتلهم النارُ"، ويكون المراد بأصحاب الأخدود هنا المؤمنين[٢]، ويرى الألوسي أن الأولى في توجيه هذه القراءة أن تكون " النار " خبر مبتدأ محذوف، أي هي أو هو النار، ويكون الضمير حينذاك راجعًا على الأخدود، وكونه النار خارج مخرج المبالغة، كأنه نفس النار[٣] وفي كلا التوجيهين ضرب من الإيجاز، ولون الاختصار يجعل الأسلوب مركّزًا ومكثّفًا بعيدًا عما يثقل كاهله، ويؤدي به إلى الترهل.

وتعريف " النّار " باللام هنا للدلالة على العهد، أي النار المعهودة التي أضرمها هؤلاء الطغاة، وأولئك الجبابرة؛ ليحرقوا بها المؤمنين الموحدين لله رب العالمين ﷻ.

وفي وصف النار بـ " ذات الوقود " دلالة على أنها غاية في العِظَمِ والشدة وارتفاع اللهب بحيث لا يخمد لكثرة ما يلقى فيها مما يكون سببًا في اتقادها واشتعالها من حطب وغيره[٤].

وعلة قصد هذا المعنى من وصف النار بأنها " ذات الوقود " أنه لو لم يقصد من هذا الوصف ذلك المعنى لما بقي للتوصيف فائدة؛ لأنه من الظاهر المكشوف أن النار لا تخلو عن الوقود[٥].

---

(١) فن البلاغة /٢٣٤ /د/عبد القادر حسين / دار المنار / الطبعة الثانية / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م.
(٢) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، روح المعاني ٣٠ / ٨٩.
(٣) روح المعاني ٣٠ / ٨٩.
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٩، روح المعاني ٣٠ / ٨٩.
(٥) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٩.

وذكر الألوسي معللًا إفادة هذا الوصف لذلك المعنى أن الله – ﷻ – لم يقل : مُوْقَدة، بل أخبر أنها ذات وقود، أي مالكته، وذلك كناية عن زيادته زيادة مفرطة لكثرة ما يرتفع به لهبها، وهو الحطب الموقد به وغيره(١). ويؤيد ذلك ويؤكده دلالة قول ابن عاشور: " ومعنى ذات الوقود : أنها لا يخمد لهبها؛ لأن لها وقودًا يلقى فيها كلما خبت "(٢).

وفي تعريف " الوَقُود " بلام الجنس والاستغراق دلالة على عظم حريق هذه النار وفظاعة لهبها، حيث إنها امتلكت كل موقود به(٣).

وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى " الوُقُود " – بضم الواو – على اعتبار أنه مصدر بمعنى الاتقاد والاشتعال، وحكى سيبويه أن قراءة " الوَقود " – بفتح الواو – مصدر كمضمومه (٤).

وتعلق المصدر " إذ " في قوله تعالى : " إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ " بالفعل " قُتِلَ " بمعنى لُعِنَ، أي لعنوا وغضب الله – ﷻ – عليهم وقت كونهم محدقين بالنار، وقاعدين حولها على حافتها في مكان قريب منها لإلقاء عباد الله – ﷻ – وأوليائه المؤمنين الموحدين فيها، وشاهدين ما يجري عيانًا دون أن تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة (٥).

(١) روح المعاني ٣٠ / ٨٩.
(٢)(٥) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢.
(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٢، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢.
(٤) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، روح المعاني ٣٠ / ٨٩.
(٥) حاشية زاده على البيضاوي ٥٥٩/٨، روح المعاني ٣٠ / ٩٠، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢.

والضمير " هم " يعود إلى أصحاب الأخدود الطغاة الجبابرة الذين يقعدون على شفير النار، ويخيرون المؤمنين بين الارتداد وبين الوقوع في النار، فمن ارتد وترك الإسلام تركوه، ومن صبر وأصرّ عليه ألقوه في النار وقذفوه فيها(١).

ودلّ التعبير بحرف الجر " على " هنا على الاستعلاء المجازي؛ لأنهم لا يقعدون فوق النار حقيقة ولكن حولها كقول الأعشى:

تُشَبُّ لمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها ... وباتَ عَلى النّار النَّدى والمُحَلَّقُ(٢)

ويحتمل أن يكون الاستعلاء هنا على حقيقته، أي قاعدون على النار، ويكون المراد بأصحاب الأخدود المؤمنين الموحدين المُعَذَّبين، حيث كان الكفار يحرقونهم مربوطين بهيئة القعود؛ لأن ذلك أشد تعذيبًا وتمثيلًا، أي بعد أن يقعدوهم في الأخاديد يوقدون النار فيها وذلك أروع وأطول تعذيبًا(٣).

ويحتمل أن يكون الكلام على تقدير مضاف محذوف، أي يقعدون على حافّاتها، وأشفارها، والأماكن التي يمكن الجلوس عليها(٤)، وفي ذلك لون من الإيجاز، وضرب من الاختصار.

وفي الإخبار عن أصحاب الأخدود بأنهم على النار " قُعُودٌ " كناية عن الملازمة للأخدود؛ لئلا يتهاون الذين يحشون النار بتسعيرها، ويعملون على إذكائها واتقادها(٥)، كما فيه كناية أيضًا عن استيلاء هؤلاء الجبابرة على النار حال قعودهم على شفيرها يقذفون فيها من شاءوا، ويخلون سبيل من شاءوا(٦).

---

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٩.
(٢) ديوان الأعشى الكبير / ٢٢٥ / من بحر الطويل / شرح وتعليق : د / محمد حسين ، المطبعة النموذجية / بدون تاريخ.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢، ٢٤٣.
(٤) روح المعاني ٣٠ / ٩٠.
(٥) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢.
(٦) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٥٩.

وجملة " وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ " حال من ضمير الغائب " هم " في الجملة السابقة " إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ "، أي قعود شاهدين على فعلهم بالمؤمنين، وفائدة هذه الحال هي تفظيع ذلك القعود، وتعظيم جُرْمه، إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين ولا يرقّون لهم، ولا يرأفون بهم ولا يشمئزون لما في قلوبهم من غاية القسوة والغلظة، وبذلك فقد فارق مضمون جملة الحال هنا مضمون الجملة السابقة المشتملة على صاحبها (١)، وأعيد ذكر ضمير الغائب " هم " في جملة الحال هذه ليتعين أن يكون عائدًا إلى بعض أصحاب الأخدود (٢).

و " على " هنا على حقيقتها، أي أن أصحاب الأخدود يشهد بعضهم عند الملك بأن أحدًا منهم لم يقصر، ولم يُفَرِّط فيما أمر به، أو يشهدون عنده على حسن ما يفعلون، أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل الشنيع الفظيع يوم القيامة، أو يشهدون على أنفسهم يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم، وقيل : إن " على " هنا بمعنى مع، ويكون المعنى أن هؤلاء مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم، ومن زعم أن الله – ﷻ – إنما نجّى المؤمنين وأحرق الكافرين يرى أن المعنى : وهم على ما يريدون فعله بالمؤمنين شهود (٣).

وفي التعبير بالموصولية " مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ " من الإبهام ما يفيد أن لموقدي النار من الوَزَعة العَمَلة ومن يباشرون إلقاء المؤمنين الموحدين فيها غلظةً وجفوة وقسوة في تعذيب المؤمنين وإهانتهم والتمثيل بهم (٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٢.

(٢) السابق / نفس الجزء والصفحة.

(٣) روح المعاني ٣٠ / ٩٠، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩ / ١٣٧ / أبو السعود محمد بن علي العماري / دار إحياء التراث العربي / بيروت / لبنان / بدون تاريخ.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٣.

وجاء التعبير بالمضارع " يفعلون " هنا للدلالة على التجدد والحدوث الاستمراري، أي أن فعل هؤلاء كان متجددًا شيئًا فشيئًا، وحالًا بعد حال، وآنًا بعد آن، بحيث كلما انتهوا من جماعة ألقوا أخرى دون توان أو كلل أو ملل.

والضمير في " يَفْعَلُونَ " هنا يجوز أن يعود إلى أصحاب الأخدود، أي أن بعضهم يشهد لبعض عند هذا الملك الطاغية بأن أحدًا لم يفرّط فيما وُكِّل به من تحريق المؤمنين وتعذيبهم، ويجوز أن يعود إلى ما تقتضيه دلالة الاقتضاء من تقسيم أصحاب الأخدود إلى أمراء ومأمورين شأن الأعمال العظيمة، فلما أخبر عن أصحاب الأخدود بأنهم قعود على النار عُلِمَ أنهم الموكلون بمراقبة العمّال، وعُلِمَ أن لهم أتباعًا من سعّارين وَوَزَعة(١).

وفي التعبير بـ " المؤمنين " بلفظ التذكير تغليب للمؤمنين على المؤمنات، إذ المراد المؤمنين والمؤمنات بدليل وجود أم الصبي كما ورد في الحديث النبوي الشريف الذي حكى قصة أصحاب الأخدود(٢)، ولعل ذلك لسبق ذكر المؤمنات مع المؤمنين، أو لأن النساء مطمورات في الرجال، وإنما ذُكِرْنَ قبل ذلك لبيان أن الحكم – وهو الفَتْن – كان شاملًا لكلا الجنسين.

وعطفت جملة " وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ " على جملة " هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ " للتشريك في الحكم الإعرابي، حيث إن جملة " هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ " في محل جر مضاف إليه، هذا بالإضافة إلى وجود المناسبة بين الجملتين والجهة الجامعة المسوّغة للعطف، فالمسند إليه – وهو ضمير الغيبة هم – فيهما واحد، والمسند فيهما اسم على وزن واحد " فُعُول "، وفي كل واحدة من الجملتين صفة تدل على شدة ظلمهم وعتوهم

(١) السابق / نفس الجزء والصفحة.

(٢) صحيح مسلم / كتاب الزهد والرقائق / باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام / رقم : ٣٠٠٥ / ٤ / ٢٢٩٩، تحفة الأحوذي / كتاب التفسير / باب تفسير سورة البروج / رقم : ٣٣٩٨ / ٩ / ٢٦٠ – ٢٦٥.

وطغيانهم، فالأولى تفيد أنهم قعود على النار يسعرونها ويلازمون على إذكاء جذوتها ومدها بكل ما تحتاج إليه من وقود، والثانية تفيد أنهم شهود على فعلهم الفظيع الشنيع بالمؤمنين الموحدين الذين ليس لهم ذنب سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد وحده سبحانه وتعالى !!!

ثم عطفت جملة " وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " على جملة " وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ " للتشريك في الحكم الإعرابي ووجود الجهة الجامعة المسوّغة للعطف بينهما أيضًا، فهي في محل جر، وهي تثبيت لأصحاب الأخدود، وصفة ذميمة ثالثة، وهي أنهم – وهم الطغاة الجبابرة – ما انتقموا من المؤمنين الموحدين إلا لأنهم آمنوا بالله – ﷻ – وأقروا له – ﷻ – بالوحدانية، وكفروا بمن سواه.

ووجه عطف هذه الجملة الفعلية على الجملة الاسمية السابقة عليها – كما يرى الألوسي – هو وقوع الجملة الاسمية في حيّز " إذ " الماضوية، فكأن العطف عطف فعلية على فعلية، وقيل : إن هذه الجملة الفعلية بتقدير " وهم ما نقموا... " وحينئذ تكون اسمية معطوفة على اسمية [1].

وفي هذه الآية لون بديعي خلاب، ألا وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، حيث أُتِيَ فيها بمستثنى فيه معنى المدح وهو قوله تعالى : " إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ "، وجاء هذا المستثنى معمولًا لفعل فيه معنى الذم، وهو " نقموا "، فجملة المستثنى في محل نصب مفعول به لهذا الفعل، وفي هذا الاستثناء إفصاح عن براءتهم عما يعاب وينكر عليهم بالكلية، فأصحاب الأخدود لم يعيبوا وينكروا على أولئك المؤمنين الموحدين إلا إيمانهم بالله رب العالمين – تبارك وتعالى – العزيز الذي لا يضام من

(١) روح المعاني ٣٠ / ٩٠.

لاذ بجانبه، الحميد في جميع أفعاله وأقواله وأقداره !!! والإيمان بالله – ﷻ – أشرف جميل فضائل المكلفين ومحامدهم التي تقتضي إكرامهم وتعظيمهم، وتستلزم محبتهم، ولكن لغاية غواية أصحاب الأخدود الجُهَلاء الظلمة الصناديد وجهلهم عَدّوا الإيمان بالله – ﷻ – عيبًا وقبحًا عابوهم عليه، وفي هذا تشنيع على أهل الأخدود، وتعجيب من ظلمهم، حيث جعلوا الحسنة سيئة، وما هو غايةُ الشرفِ قبحًا وجُرْمًا، والمَحْمَدةِ ذمًّا وعيبًا!! [(١)] وهذه شنشنة أهل الباطل، وتلك عادة أعداء الله وهِجِّيْراهم دائمًا في كل عصر ومصر، ولقد جاء هذا الأسلوب على نسق قول النابغة الذبياني :

ولا عَيْبَ فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ من قِراعِ الكَتائِبِ [(٢)]

وفي هذا ضرب من الخلابة والطرافة، ولون من المباغتة والمفاجأة يثير الانتباه، ويوقظ الحس، ويحرك المشاعر، حيث إن المتكلم حينما يأتي بأداة الاستثناء يتوهم السامع أن ما يأتي مُخْرَج مم قبلها فيكون شيئًا من الذم، فلما جاء بعد الأداة صفة مدح وتحول الاستثناء من اتصال على انقطاع حصل التأكيد؛ وذلك لما في الاستثناء من زيادة المدح على المدح، والإشعار بأن المتكلم لم يجد صفة ذم يستثنيها فاضطر إلى استثناء صفة مدح وتحويل الاستثناء من الاتصال إلى الانقطاع[(٣)].

وجاء التعبير بقوله تعالى : " يؤمنوا " بصيغة المضارع الدال على الاستقبال والتجدد الاستمراري مع أن الإيمان وجد منهم في الماضي؛ لأن التعذيب والإنكار ليس للإيمان الذي وجد منهم في الماضي، وإنما كان واقعًا على الإيمان في المستقبل

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٩ / ٥٥٩، روح المعاني ٣٠ / ٩٠، التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٠ / ٢٤٤.

(٢) ديوانه / ١٥ / من بحر الطويل / تحقيق : حَمْدُو طَمّاس / دار المعرفة / بيروت / لبنان / ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م.

(٣) دراسات منهجية في علم البديع / ١٨٧ / د / الشحات محمد أبو ستيت / دار خفاجي / قليوبية / الطبعة الأولى / ١٤١٤هـ – ١٩٩١م.

وديمومته متمكنًا فيهم، مركوزًا في صدورهم، ولو كفروا فيه لم يعذبوا على ما مضى من الإيمان، وكأن المعنى : إلا أن يدوموا ويستمروا على إيمانهم [١].

والباء في " بِاللَّهِ "للدلالة على التعدية، حيث أوصلت معنى الفعل إلى المفعول به، ويحتمل أن تكون حرف صلة للتوكيد، وجاء التعبير بلفظ الجلالة؛ لتربية المهابة في النفوس؛ لأنه هو العَلَم على الذات العليّة ﷻ، وهو الاسم الجامع لكل صفات الكمال والجمال والجلال.

وذكر ابن عاشور أن إجراء الصفات الثلاث – وهي العزيز، الحميد، الذي له ملك السموات والأرض – على اسم الجلالة " لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم، بل هو حقيق بأن يُمْدَحُوا به؛ لأنهم آمنوا برب حقيق أن يؤمنوا به لأجل صفاته التي تقتضي عبادته، ونبذ ما عداه؛ لأنه ينصر مواليه ويثيبهم، ولأنه يَمْلِكهم، وما عداه ضعيف العزة لا يضر ولا ينفع، ولا يَمْلِك منهم شيئًا، فيقوى التعجب منهم بهذا"[٢]، فذكر – ﷻ – الأوصاف التي يستحق بها أن يعبد، وأن يؤمن به كل مخلوق.

وجاءت هذه الصفات الثلاث بدون عطف؛ لأن المقصود هنا هو الاتصاف بها مجتمعة، وكأن هذه الصفات تلاقت من داخلها، وشكلت صفة واحدة تشتمل عليها، وهذا سر لطيف ودقيق.

وكونه – ﷻ – عزيزًا غالبًا يقتضي أن يخشى عقابه، وكونه – ﷻ – حميدًا مُنْعِمًا يقتضي وجوب الحمد له على نعمته وجميع أقواله وأفعاله بجميع أنواع المحامد،

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، الدرّ المصون ١٠ / ٧٤٧ / السمين الحلبي / تحقيق : د / أحمد محمد الخراط / دار القلم / دمشق / بدون تاريخ، روح المعاني ٣٠ / ٩٠.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٤، وينظر : روح المعاني ٣٠ / ٩٠.

وكونه- ﷻ – له ملك السموات والأرض يقتضي أحقيته – ﷻ – بالعبادة والخشوع له دون سواه [١].

ولما كان ربما أوهم تَرْك ومعالجة الله- ﷻ – لهؤلاء المؤمنين الموحدين – وهو القادر على حمايتهم وإنجائهم – ما لا يليق به – ﷻ – فقد نفى ذلك بوصفه – ﷻ – بأنه " العزيز " الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يغلب من أراد ولا يُغْلَب؛ لئلا يظن ظانّ أن تَرْك معالجته لأهل ولايته لعجز منه – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا – بل هو يبتليهم؛ ليعظم أجورهم، ويعظم عقاب أعدائهم والانتقام منهم [٢].

وفي اقتران صفة الله " الْعَزِيزِ " بصفة الله " الْحَمِيدِ " دلالة على أن عزة الله – ﷻ – محمودة في جميع الأحوال والأفعال والأقوال، هذا بالإضافة إلى أن كلًّا منهما صفة كمال، فالأولى متضمنة لكمال القدرة، والثانية متضمنة لكمال العلم، واقتران إحداهما بالأخرى له كمال زائد على الكمال بكل واحدة منهما، فهو كمال فوق كمال.

وأخّر – ﷻ – اختصاصه بالملك التام عن كونه – ﷻ – عزيزًا حميدًا؛ لأن الصفة الأولى " العزيز " دالة على كمال القدرة، والثانية " الحميد " دالة على كمال العلم، واختصاصه – ﷻ – بالملك التام بحيث يكون موجدًا لجميع الكائنات، ويكون إبقاؤها وإفناؤها مفوضًا إلى محض مشيئته إنما يكون عند حصول الكمال في القدرة والعلم[١]. هذا بالإضافة إلى ما في هذه الصفة من الدلالة على تأكيد استحقاق الله – ﷻ – للعزة والحمد.

---

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤.

(٢) نظم الدرر ٢١ / ٣٥٨.

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦٠.

واللام في " له " للدلالة على الملك؛ لأنها داخلة بين ذاتين، ومصحوبها – وهو هاء الضمير العائد إلى لفظ الجلالة العلم على الذات العليّة – يملك، فهو – ﷻ – يملك ما في السموات والأرض.

وفي تقديم الخبر الجار والمجرور " له " على المبتدأ " ملك السموات والأرض " قصر بطريق تقديم ما حقه التأخير يوحي باختصاص الله – ﷻ – دون غيره بملك السموات والأرض، وكيف لا وهو – ﷻ – مالك الملك ؟

وجُمِعَتْ " السموات " وأفردت " الأرض " لخفة لفظ " السموات " – جمع سماء – وثقل لفظ " الأرضين "؛ ولذا لم ترد " الأرض " في القرآن الكريم إلا مفردة، ولقد بَيَّن العلّامة / مصطفى صادق الرافعي هذه العلة فقال : " ولم يقل : سبع أرضين؛ لهذه الجُسْأة[٢] التي تدخل اللفظ، ويختلّ بها النظم اختلالًا"[٣].

وذكر ابن قيّم الجوزيّة علة عدم جمع لفظة " أرض " في القرآن الكريم على " أرضين " أنها لفظة جارية مجرى المصدر، فهي بمنزلة السُّفْل والتَّحْت، وبمنزلة ما يقابلها كالفوق والعلو، فلا معنى لجمعها كما لا يجمع الفوق والتحت والعلو والسُّفْل، فأكثر ما تجيء مقصودًا بها معنى الفوق والسُّفْل دون أن يقصد بها ذواتها وأعدادها[١]. وكأن معنى جملة " له ملك السموات والأرض " – والله أعلم – له الملك كله من أعلاه إلى أسفله، أي من أقصاه إلى أقصاه.

---

(٢) الجُسْأة : الصلابة الخشونة والغِلَظ، يقال : جَسَأ الشيء يَجْسَأ جُسُوْءًا وجُسْأة فهو جاسئ : صَلُبَ وخَشُنَ، والجاسياء : الصلابة والغِلَظ. لسان العرب / مادة : جَسَأ.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / ٢٣٣ / دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان / الطبعة التاسعة / ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م.

(١) بدائع الفوائد ١ / ١١٣ – ١١٥ / إدارة الطبعة المنيرية / مصر / بدون تاريخ.

وجملة " والله على كل شيء شهيد " استئنافية، وهي متضمنة وعدًا للذين عُذِّبوا في جَنْب الله، ووعيدًا لمعذبيهم وأمثالهم من كفار قريش وغيرهم، حيث إن علمه – ﷻ – بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كلٍّ منهما حتمًا، فيستدعي الجنة جزاء للمؤمنين، ويستدعي جهنم جزاء للكافرين.

وجاء التعبير في جملة التذييل هذه " وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " بلفظ الجلالة " الله " مظهرًا، وقد كان ظاهر السياق التعبير به مضمرًا لسبق ذكره صريحًا قبل ذلك؛ لأن جملة التذييل هنا تنشئ مبدأً عامًّا، وترسي قاعدة كلية مفادها أن الله – ﷻ – مطلع على كل مخلوقاته، ومطلع على أفعال المكلفين، الأمر الذي يقتضي إثابة المطيع ومعاقبة العاصي، يقول الألوسي : " ولكونه تذييلًا واللائق به الاستقلال جيء فيه بالاسم الجليل دون الضمير"(٢)، ولا يخفى ما في التعبير بلفظ الجلالة " الله " من تربية المهابة في النفوس.

وفي التعبير بصيغة المبالغة " شهيد " على وزن " فعيل " دلالة على كمال شهادة الله – ﷻ – وتمامها، فالله – ﷻ – أتمّ شهادة بحيث لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا يخفى عليه صغير أو كبير، ولا يكون شيء إلا بتدبيره، ويؤازر هذا ويؤكده التعبير بصيغة العموم " كل " وإضافتها إلى لفظة " شيء " منكرة.

وفي الإخبار عن الله – ﷻ – بأنه على كل شهيد مشاكلة، حيث سمى الله – ﷻ – إحاطته الكاملة بجميع المخلوقات شهادة لوقوع ذلك في صحبة التعبير بالشهادة قبل ذلك في قوله تعالى : " وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ "، وقوله تعالى : " وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ "، وفي ذلك لون من الخلابة يثير الانتباه، ويحرك الذهن، وينشط العقل، ويستدعي التفكير، ويتطلب النظر والتدبر، وذلك لظهور المعنى المراد في لفظ غير مألوف، وبروزه في رداء غير معتاد، وفي ذلك تأكيد للمعنى في الذهن، وتثبيت له

(٢) روح المعاني ٣٠ / ٩٠.

في النفس، وذلك لنيله بعد تأمل وتفكر وتدبر، هذا بالإضافة إلى ما في المشاكلة من ترابط للأسلوب، وتلاحم لأجزائه، وتماسك لأبعاضه وأطرافه.

المبحث الثاني
عقاب الظلمة المعتدين وثواب البررة المُوَحِّدِين

قال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ".

بعد أن بَيَّنَ الله – ﷻ – تلك الفعلة الشنيعة، والخطيئة العظيمة، والسيئة الكبيرة التي اجترحها أصحاب الأخدود الآثمين، وعَذَّبُوا بها ظلمًا وعدوانًا المؤمنين الموحدين لله رب العالمين بالإحراق في الأخدود دون أن يكون لهم ذنب سوى الإيمان بالله – ﷻ – وحده أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب، وأوضح وبَيَّنَ مستأنفًا جزاء كل فريق من الفريقين، ومثوى كل طائفة من الطائفتين.

فجملة " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ " استئنافية استئنافًا بيانيًّا مسوقة لذكر وعيد المجرمين أولًا، ثم أردفها – ﷻ – بذكر ما أعده للمؤمنين، وفصلت هذه الجملة عما قبلها لشبه كمال الاتصال؛ لأنها وقعت جوابًا عن سؤال فُهِمَ من مضمون ما قبلها، وكأن سائلًا سأل وقال : ماذا فعل الله – ﷻ – بهؤلاء الطغاة الظلمة الجبابرة الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ؟ فجا الجواب بهذه الجملة، وتُرِكَ العطف بين هذه الجملة المستأنفة وما سبقها لقوة الرابطة المعنوية بين الجملتين، حيث لا يعطف الجواب على السؤال، لشدة ارتباط الجواب بالسؤال، فهما كالشيء الواحد، إذ ليس جملة الجواب ابتداء كلام منقطع عن سابقه، وإنما هي منبثقة عن جملة السؤال التي هي كالأم لها.

وأكدت هذه الجملة بـ " إنّ " لتأكيد الخبر في نفس المخاطب، وتثبيت مضمونها في ذهن المتلقي، ومواجهة إنكار الطغاة الكفرة الظلمة الذين ينكرون أن تكون عليهم تَبِعة فَتْن المؤمنين الموحدين.

ويحتمل أن يكون المقصود بـ " الَّذِينَ فَتَنُوا " أصحاب الأخدود، والمقصود بـ " الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ " المطرحين في النار، ويكون التعبير بالفتنة بمعنى الإحراق بالنار على حقيقته، ويحتمل أن يكون المقصود بـ " الَّذِينَ فَتَنُوا " كفار قريش الذين عذّبوا المؤمنين والمؤمنات من أمة النبي محمد – ﷺ – ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : " ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا "؛ لأن أصحاب الأخدود لم يُنْقَل أن أحدًا منهم تاب، حيث لم يُلْعَنوا إلا وقد ماتوا على الكفر(١)، وبناء على هذا الاحتمال الثاني يكون في التعبير بـ " فَتَنُوا " استعارة، حيث شبه ما فعله كفار قريش وصناديدها بالمؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة المحمدية من ألوان التعذيب والإيذاء ليردوهم عن دينهم، ويُحَوِّلوهم عن عقيدتهم بالفتنة التي " أصلها مأخوذ من فتنت الفضة والذهب أي : أذبتهما بالنار لتمييز الجيد من الرديء"(٢)، ثم حذف لفظ المشبه، واستعير لفظ المشبه به للمشبه، واشتق منه " فتنوا " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وتتجلى بلاغة هذه الاستعارة في تبشيع الجُرْم الذي اقترفه أصحاب الأخدود، وتفظيع الإثم الذي اجترحوه، وتعظيم الذنب الذي ارتكبوه، هذا بالإضافة إلى ما فيها من المبالغة بدعوى اتحاد المشبه والمشبه به، وامتزاج أحدهما بالآخر.

ويحتمل – والله أعلم – أن يكون المقصود بالفاتنين كل من بلوا المؤمنين وآذوهم كأصحاب الأخدود وكفار قريش وغيرهم من الطغاة الجبابرة، وأن يكون المقصود بالمفتونين كل المؤمنين الذين تعرّضوا للإيذاء والتعذيب كالمؤمنين الذين عُذِّبُوا من قِبَل أصحاب الأخدود والذين عُذِّبُوا من كفار قريش وغيرهم من المؤمنين في كل عصر ومصر، وتحمل الآية على العموم، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، ٤٤٥، روح المعاني ٣٠ / ٩٠.
(٢) لسان العرب / مادة : فتن.

وفي التعبير بصفة الإيمان " الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ " إشعار بالسبب الذي دفع أصحاب الأخدود الجبابرة الطغاة الصناديد لتعذيب هؤلاء المؤمنين الموحدين البررة، وهو إيمانهم بالله – ﷻ – وحده، وكفرهم بكل الطواغيت.

وعُطِفَ " الْمُؤْمِنَاتِ " على " الْمُؤْمِنِينَ " " للتنويه بشأنهن؛ لئلا يُظَنّ أن هذه المزيّة خاصة بالرجال، ولزيادة تفظيع فعل الفاتنين بأنهم اعتدوا على النساء، والشأن ألا يتعرض لهن بالغلظة"(١).

وعُطِفَت جملة " ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا " على جملة " فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ " للدلالة على أن العقاب الذي أفصحت عنه جملة الخبر " فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ " ليس مُرَتَّبًا على فتنة المؤمنين والمؤمنات فقط، وإنما هو مُرَتَّب على فَتْنهم مع عدم التوبة من هذا الذنب العظيم، والإثم الشنيع، إذ لو تابوا قبل أن يموتوا لنجوا من هذا الوعيد، يقول الإمام عبد القاهر : " فأمر العطف إذن موضوعٌ على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتَعْمِدُ أخرى إلى جملتين أو جُمَل فتعطفُ بعضًا على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك. وينبغي أن يُجْعَل ما يُصْنع في الشرط والجزاء من هذا المعنى أصلًا يُعْتَبَرُ به"(٢).

وذكر الشيخ ابن عاشور أن هذه الجملة " ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا " معترضة(١)، وهذا لا يتوافق مع مراد الآية؛ لأن الوعيد فيها ليس مُرَتَّبًا على فَتْن المؤمنين فقط، وإنما هو

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٦.
(٢) دلائل الإعجاز / ٢٤٥ / تحقيق : محمود محمد شاكر / دار المدني / جدة، مطبعة المدني / مصر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.
(١) دلائل الإعجاز / ٢٤٥ / تحقيق : محمود محمد شاكر / دار المدني / جدة، مطبعة المدني / مصر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

مُرَتَّب على فَتْن المؤمنين مع عدم التوبة من ذلك الذنب العظيم؛ لأن أصحاب الأخدود لو كانوا تابوا بعد هذا الإثم الذي اجترحوه لغفر الله لهم؛ لأن الله – ﷻ – يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، وهذا غاية الكرم والجود.

واستخدم القرآن العظيم هنا أداة العطف " ثم " للدلالة على الترتيب والتراخي، ولكن هناك من العلماء من حمل التراخي هنا على أنه تراخٍ في الزمن كالبقاعي، حيث يقول : " ولما كانت توبة العبد مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمن عبّر بأداة التراخي"(٢)، وفي هذا إشعار بكمال حلمه – ﷻ – وكرمه، حيث لا يعجل في القهر والعقوبة، ويقبل التوبة وإن طالت مدة الحَوْبة، وهناك من العلماء من حمل التراخي هنا على أنه تراخٍ في الرتبة كابن عاشور، حيث يقول: " و " ثم " فيها للتراخي الرُّتْبيّ؛ لأن الاستمرار على الكفر أعظم من فتنة المؤمنين" (٣). والآية هنا تحتمل الوجهين معًا، ولا تعارض بينهما.

وفي هذه الجملة المعطوفة " ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا " تعريض للمشركين بأنهم إن تابوا وآمنوا قُبِلَ ذلك منهم، وخرجوا من هذا الوعيد، وسلموا من عذاب جهنم"(٤)، فما أعظم حِلْمَ الله – ﷻ – وما أوسع رحمته.

وجا التعبير بأداة النفي " لم " هنا؛ لأن النفي بها – كما يرى د / إبراهيم أنيس – آكد من النفي بـ " ما "؛ " لأن " ما " تحتاج إلى قسم لتوكيد نفيها بخلاف " لم "،

(٢) نظم الدرر ٢١ / ٣٥٩.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٦.
(٤) السابق / نفس الجزء والصفحة.

والنفي بـ " ما " الذي يحتاج في توكيده إلى القسم أضعف من النفي بـ " لم " التي لا تكون جوابًا للقسم"[١].

ودخلت الفاء على جملة الخبر " فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ " لربط المبتدأ بالخبر؛ لأن المبتدأ هنا – وهو الاسم الموصول – متضمن معنى الشرط، ولا ضير في نسخه بـ " إن"[٢]، ولا يخفى ما في الفاء هنا من الدلالة على السببية، حيث إن الخبر مُسَبَّب عن المبتدأ، ومُرَتَّب عليه، أي لهم في الآخرة عذاب جهنم وعذاب الحريق بسبب كفرهم وفَتْنهم المؤمنين مع عدم التوبة؛ لأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياء الله – ﷻ – وعذبوهم بالنار لغفر لهم، ولم يعذبهم، وهذا غاية الكرم والجود، وفي هذا دعوة للعصاة ألا ييأسوا من رَوْح الله وعفوه، وألا يقنطوا من رحمته ومغفرته مهما كانت خطاياهم، إذ لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون.

وعطفت جملة " لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ " على جملة الخبر للدلالة على أن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات لهم عذابان : عذاب جهنم بسبب فَتْنهم المؤمنين والمؤمنات، وعذاب الحريق – وهو نار أخرى زائدة في الإحراق كما تنبئ عنه صيغة فعيل الدالة على المبالغة – لعدم توبتهم ومبالاتهم بما صدر منهم، وذكر بعض العلماء أن المعنى : لهم عذاب جهنم بسبب كفرهم؛ لأن فعلهم هذا لا يصدر إلا من كافر، ولهم عذاب الحريق بسبب فَتْنهم المؤمنين والمؤمنات، وقيل : لهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا؛ لما روي من أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم [١].

---

(١) من أسرار اللغة / ١٨٥، ١٨٦ / مكتبة الأنجلو المصرية / الطبعة السابعة / ١٩٨٥م.
(٢) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٧، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٦.
(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٤، روح المعاني ٣٠ / ٩١.

وذكر الشيخ ابن عاشور أن عطف " لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ " في معنى التوكيد اللفظي لجملة " لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ "، واقتران الجملة المعطوفة بواو العطف للمبالغة في التأكيد بإيهام أن من يُرِد زيادة تهديدهم بوعيد آخر لم يجد أعظم من الوعيد الأول(٢).

وقد يحتمل العطف بالواو هنا الدلالة على المغايرة بين المتعاطفين على اعتبار أن الزَّجّ بهؤلاء الفاتنين في جهنم قبل أن يذوقوا عذابها يعد نوعًا من العذاب، وعذاب الحريق هو العذاب التالي لذلك الزَّجّ والدَّعّ (٣).

ويحتمل أن يكون هذا العطف من قبيل عطف الخاص على العام للمبالغة في الوعيد الخاص؛ لأن عذاب جهنم يكون بالزمهرير والإحراق وغيرهما(٤).

وقال سيد قطب مبينًا علة النص على " عَذَابُ الْحَرِيقِ " وبلاغة ذلك مع فهمه من عذاب جهنم : " وينصّ على " الْحَرِيقِ " وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به، وينص عليه؛ ليكون مقابلًا للحريق في الأخدود، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث، ولكن أين حريق من حريق ؟ في شدته أو في مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم، ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاس الهابط الذميم!"(١).

---

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٦.

(٣) السابق / نفس الجزء والصفحة.

(٤) روح المعاني ٣٠ / ٩١.

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٧٤ / دار الشروق / القاهرة / الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون / ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.

وفي تقديم المسند على المسند إليه في كلتا الجملتين دلالة على اختصاص هؤلاء الفاتنين بهذين النوعين معًا من العذاب دون غيرهم لعِظَم جُرْمهم، وفظاعة ذنبهم، وبشاعة خطيئتهم مع عدم توبتهم.

وبعد أن أوضحت هذه الآية الكريمة عقاب هؤلاء الكفرة المعاندين الفاتنين للمؤمنات والمؤمنين بادئة به؛ لأن المقام له جاءت الآية التالية لها " إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ " وبَيَّنَتْ ثواب الله – ﷻ – لأوليائه المؤمنين العابدين الموحدين وما أعده لهم، وذلك منهج قرآني في اقتران الترهيب بالترغيب، يقول الزمخشري : " من عادته – ﷻ – في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف"(٢).

وفصلت هذه الجملة " إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا... " عن جملة " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المؤمنين... " لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، وكأن سائلًا سأل وقال : إذا كان عقاب الكفار المعاندين المعتدين الصادّين عن دين الله – ﷻ – والفاتنين لأوليائه عذاب جهنم وعذاب الحريق فما ثواب المؤمنين العابدين الموحدين لله رب العالمين ؟ فجاءت هذه الجملة مجيبة عن هذا السؤال، ومن المعلوم أن الجواب لا يعطف على السؤال؛ لما بين السؤال والجواب من ترابط قوي وثيق.

وحكى الألوسي أن سبب الفصل هو كمال الاتصال؛ لأنها " كالتأكيد لما أشعرت به الآية قبلُ من اختصاص العذاب بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا"(١).

(٢) الكشاف ١ / ١٠٤ / دار الكتاب العربي / بيروت / الطبعة الثالثة / ١٤٠٧ هـ.
(١) روح المعاني ٣٠ / ٩١.

وأجاز ابن عاشور أن تكون هذه الجملة معترضة بين جملة " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المؤمنين... "، وجملة " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ " اعتراضًا بالبشارة في خلال الإنذار لترغيب المُنْذَرين في الإيمان، ولتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين المعتدين وتعذيبهم(٢).

وأُكِّدَت هذه الجملة بـ " إن " للاهتمام بالخبر وتقويته وتثبيته في نفس المخاطب، وتمكين البشرى التي تضمنتها هذه الآية في قلوب المفتونين؛ لكي يثبتوا على ما هم عليه، ولا يستجيبوا لأضاليل الفاتنين وأكاذيبهم.

واقتصرت الآية هنا على ذكر الإيمان والعمل الصالح " آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ "، ولم تذكر التوبة في مقابل " لم يتوبوا " في الآية السابقة؛ " ليدل على أن الإيمان والعمل هو التوبة من الشرك الباعث على فَتْن المؤمنين"(٣).

وفي تعريف المسند إليه بالموصولية " الذين آمنوا " وعَطْف جملة " عملوا الصالحات " على جملة الصلة إشارة إلى سبب استحقاق الخبر – المسند – وإشعار بمعرفته، وإرصاد دالّ عليه، وهو دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وفي هذا لون من تقوية الأسلوب وسبكه، وترابط أجزائه وأطرافه، وتماسك لبناته؛ إذ خير الكلام ما دلّ بعضه على بعض، وأخذ بعضه برقاب بعض، وشهد صدره بعَجُزه.

وعطفت جملة " عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " على جملة " آَمَنُوا " لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين باتفاقهما في الخبرية، هذا بالإضافة إلى أن المسند إليه فيهما واحد، والمسند فيهما بصيغة واحدة، وهي الفعل الماضي، وكذلك الدلالة على أن الخبر

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٧.
(٣) السابق / نفس الجزء والصفحة.

– وهو استحقاقهم لتلك الجنات – مُرَتَّب على الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح، حيث إن العمل الصالح من كمال الإيمان، وما ذكر الله – ﷻ – الإيمان إلا قرن به الأعمال الصالحة تنبيهًا على أن الاعتقاد لا يغني من دون العمل، فالعلم، أُسّ والعمل بناء، ولا غناء للأس ما لم يكن بناء، كما لا بناء ما لم يكن له أُسّ؛ ولذا حقهما أن يتلازما(١)، إذ بهذه الثنائية تكتمل معالم الفلاح والنجاح والفوز في الدارين.

وجاء التعبير بـ " عَمِلُوا " دون " فعلوا "؛ لأن الغالب في العمل أنه ينسب إلى العقلاء، ويستعمل لما يمتد زمانه، وذلك بخلاف الفعل فإنه ينسب إلى العقلاء وغير العقلاء والجمادات، ويستعمل لما يكون دفعة واحدة(٢).

وفي هذه الجملة المعطوفة إيجاز بالحذف، حيث حذف منها الموصوف، والتقدير : وعملوا الأعمال الصالحات، وفي هذا لون من اكتناز العبارة، وتكثيف الأسلوب، وتخليصه مما يؤدي به إلى الترهل والثقل.

وتعريف " الصالحات " بلام الجنس للدلالة على العموم والاستغراق، أي كل الأعمال الصالحة التي تدخل في نطاق الاستطاعة والطاقة، وتتناسب مع حال المكلف.

ولم يقترن الخبر هنا " لَهُمْ جَنَّاتٌ " بالفاء كما اقترن بها في الآية السابقة؛ لأنه لما كان الله – ﷻ – من رحمته أنه قد تَغَمَّدَ أولياءه بعنايته، ولم يكلهم إلى أعمالهم لم يجعلها سبب سعادتهم(١)، إذ لم يدخل أحد الجنة إلا إذا تَغَمَّدَه الله – ﷻ – برحمته.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ١ / ١٢٢ / الراغب الأصفهاني / تحقيق ودراسة : د / محمد عبد العزيز بسيوني / الناشر : كلية الآداب / جامعة طنطا / الطبعة الأولى / ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

(٢) المفردات في غريب القرآن ٢ / ٤٥١، ٤٥٢ / الراغب الأصفهاني / تحقيق : مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز / مكتبة نزار مصطفى الباز / مكة المكرمة / بدون تاريخ.

(١) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٠.

وفي التعبير باللام وتقديم المسند على المسند إليه في " لَهُمْ جَنَّاتٌ " دلالة على الاختصاص والسببية، أي أن هذه الجنات خاصة بالمؤمنين وحدهم دون غيرهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، فما أجملها مثوى !!، وما أجملها مأوى !!، وأنعم وأكرم بها من دار !!

وفي جَمْع الجنات دلالة على تعدد صور الاستمتاع، وتكثير ألوان التنعيم، وتعظيم الجزاء، الأمر الذي يحمل النفوس على الجد والاجتهاد والسعي إليها طمعًا في نيلها، ورغبة في تحقيقها، وأملًا في الوصول إليها.

ووصفت الجنات بجملة " تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " لتقليل الاشتراك، وتخصيص الموصوف بعد أن كان فيه معنى العموم، هذا بالإضافة إلى ما يوحي به هذا الوصف من زيادة التمدح لهذه الجنات، والترغيب فيها، والتشويق إليها.

وجاء التعبير بالفعل " تجري " بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والحدوث الاستمراري آنًا بعد آن، وحالًا بعد حال دون توقف أو انقطاع، وقد يكون فيه أيضًا دلالة على استحضار الصورة المستقبلية أمام المخاطبين حتى كأنهم يرونها تحدث أمامهم، ويشاهدونها تجري أمام أعينهم.

وفي وجود هذه الأنهار ضرب من النعيم لأصحاب الجنة، حيث " يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا، ويروقهم النظر إليها مع خضرة الجنان والوجوه الحسان الجالبة للسرور، الجالية للأحزان"[١]، وفي جريها دلالة على حسن مياهها ونقائها، وعذوبتها، وجودة منظرها، وذلك بخلاف المياه الراكدة.

(١) السابق / نفس الجزء والصفحة.

وفي إسناد الجري للأنهار مجاز عقلي بعلاقة المكانية؛ لأن الأنهار اسم للأمكنة والوديان التي تجري فيها المياه، والذي يجري هو المياه الموجودة في هذه الأنهار وليس الأنهار، وتكمن بلاغة هذا المجاز في " أن المياه لكثرة فيضانها، وشدة جريانها تُرَى وكأن محلها هو الذي يجري، وكأن الجري قد تجاوز الماء إلى مكانه"(٢).

وفي تقييد الجري بالجار والمجرور " من تحتها " لمجرد الكشف؛ لأن الأنهار لا تجري من فوق، وإنما قصد منه زيادة إحضار حالة جري الأنهار، وتصوير حالها لزيادة تحسين وصف الجنات، وتصوير الحالة للسامع لقصد الترغيب، وهذا من مقاصد البلغاء، حيث إن البليغ لا يقتصر على مجرد الإفهام(٣).

والمقصود بالجنات هنا قد يكون الأشجار الموجودة فيها، وذلك من قبيل المجاز المرسل بعلاقة المحلية، حيث ذكر المحل، وأريد الحالّ فيه وهو الأشجار، وفي ذلك إشارة إلى شيوع الجري وعمومه تحت الجنة كلها، وقد يكون المقصود بالجنات الأرض المشتملة عليها، وتكون التحتية هنا باعتبار جزئها الظاهر؛ لأن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة الدالّ على سترها وإحاطتها بالأشجار(١).

وبعد أن ذكر الله – ﷻ – الجنة وما فيها من أنهار تسر النفوس، وتذهب البؤس ذَيَّلَ ذلك بجملة " ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ " إشارة إلى عِظَم الجزاء الذي أُعِدَّ للمؤمنين، وسموّ المنزلة التي وُعِدوها، وبُشِّروا بها.

والإشارة بـ " ذلك " إلى كون ما ذكر لهم وحيازتهم الجنات؛ لأن حصولها مستلزم لحيازتهم لها قطعًا، أو أن الإشارة إلى الجنات الموصوفة، وتذكير اسم الإشارة

(٢) علم المعاني ١ / ٦٠ / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار القاهرة، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
(٣) التحرير والتنوير ١ / ٢٥٥.
(١) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٨، روح المعاني ٣٠ / ٩١.

لتأويله بالمذكور، وفي استخدام هذا الاسم المقترن بلام البعد إيذان بعلو درجة هؤلاء، وبعد منزلتهم في العِظَم والفضل والشرف(٢)، ولا يخفى ما في التعريف باسم الإشارة هنا من تمييز المشار إليه، وإبرازه في صورة المحسوس المشاهد.

وجاءت الإشارة هنا بـ " ذلك " دون " تلك "؛ لأن " تلك " إشارة إلى الجنات، أما " ذلك " فإشارة إلى إخبار الله – ﷻ – بحصول هذه الجنات للمؤمنين، وإخباره – ﷻ – بذلك يدل على كونه راضيًا عنهم، وهذا أبلغ وأعظم(٣).

وفي جملة التذييل " ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ " قصر بتعريف الطرفين، حيث قصر الله – ﷻ – الفوز الكبير على حصول الجنات المؤذن برضى الله – ﷻ – ونفاه عن كل ما عداه من ألوان الجزاء، وفي هذا إيحاء بعِظَم هذا الجزاء، وذلك الثواب، وكفى بذلك منزلة وفضلًا.

واستعمل القرآن الكريم لفظة " الفوز " – وهو نيل المطلوب والسلامة من المكروه – نتيجة للإيمان والعمل الصالح، وهو منهج قرآني واضح، يقول الدكتور / عبد العظيم المطعني موضحًا استعمال القرآن مادة " فوز " : " لم يستعمل القرآن صيغ هذه المادة إلا في مقام الإيمان والعمل الصالح الذي يرجى به وجه الله، والذي تكون عاقبته التمتع بنعيم الجنة ورضوانه"(١).

وفي وصف " الفوز " بـ " الكبير " دلالة على فخامة هذا الفوز وعلوّ منزلته، وهل هناك فوز أكبر من رضى الله ﷻ ؟ حيث تصغر عنده الدنيا وما فيها من رغائب بحذافيرها، وحيث يصغر الوجود كله عند أصغر شيء منه، وحيث لا يفهم منه كِبَره أكثر من ذكره بهذا الوصف على سبيل الإجمال.

---

(٢) المرجع السابقة نفسه.

(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦١.

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن / ٢٢٠.

ولم يوصف " الفوز " في القرآن الكريم كله بـ " الكبير " إلا في هذه السورة الكريمة، على حين أنه في آيات أخرى وُصِفَ بـ " العظيم "، ووُصِفَ أيضًا بـ " المبين "، يقول الدكتور / عبد العظيم المطعني : " فالوصف بـ " العظيم " تنويه بالكيفية التي عليها الفوز، وتعظيم شأنها، والوصف بـ " الكبير " تنويه بالكمية التي عليها الفوز، وبيان لكثرتها، والوصف بـ " المبين " تجلية لظهور الفوز وكونه في أعلى عِلِّيِّين"[٢].

وأوضح الدكتور / فاضل السامرائي أن الفوز يأتي في القرآن الكريم على ثلاث مراتب، أعلاها العظيم، يليها الكبير، يليها المبين، فحيثما يذكر القرآن الصَّرْف عن العذاب أو الإدخال في رحمته، ولم يذكر دخول الجنة يذكر الفوز المبين، وحيثما يذكر دخول الجنة فقط، ولم يذكر معها شيئًا آخر كالخلود والتأبيد والمساكن الطيبة يذكر الفوز الكبير كما هو الحال هنا، وحيثما يذكر مع دخول الجنة شيئًا آخر كالخلود والتأبيد والمساكن الطيبة يذكر الفوز العظيم[١].

وفي هاتين الآيتين مقابلة بديعة بين مصير الكفار وما آلوا إليه في جهنم وبئس المصير، ومصير المؤمنين وما آلوا إليه في الجنة، ونعم الفوز الكبير، وفي هذه المقابلة ضرب من التوازن والتناسق له حسنه وبهاؤه، هذا بالإضافة إلى تثبيت المعنى في النفس،وتحديده في الذهن، وإظهاره واضحًا قويًّا مترابطًا.

❁❁❁❁

(٢) السابق / ٢٢٣.

(١) ملتقى أهل التفسير/ شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) د / فاضل السامرائي / تم نشره في ١٥ / ٤ / ١٤٣٠ هـ - ١٠ / ٤ / ٢٠٠٩م.

المبحث الثالث
تأكيد الوعيد والوعد السابقين

قال تعالى : " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) ".

فبعد أن ذكر الله – ﷻ – في الآيتين السابقتين إنذار الفاتنين ووعيدهم وما أعدّه لهم من عذاب جهنم وعذاب الحريق، وبشرى المؤمنين الموحدين ووعدهم، وما أعدّه لهم من جنات تجري من تحتها الأنهار، جاء – ﷻ – وذكر تأكيد الوعد والوعيد السابقين، وما هو كالعلة والسبب لهما.

وجملة " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ " استئنافية مسوقة لتسلية النبي – ﷺ – عمّا يكابده من كفار قومه، وأن أمرهم مغلول، ومكرهم سيزول، وتعليلية لمضمون قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ "؛ ولذا فـ " إنّ " في هذه الجملة في موقع فاء التسبب[١]، حيث لا يُعَذِّب هذا العذاب إلا من كان غاية في القوة والاقتدار والعظمة التي تتقاصر الألفاظ دون عليائها.

ويجوز أن تكون هذه الجملة جواب القسم، والتقدير : والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود إن بطش ربك لشديد، وما بين القسم وجوابه اعتراض قصد به التوطئة للمقسم عليه، وتوكيد التحقيق الذي أفاده القسم بتحقيق ذكر النظير[٢].

وفي هذه الجملة دلالة على شدة أخذ الله – ﷻ – الظالمين، وانتقامه منهم، وعقابه لهم، حيث إن لفظة " بطش " تعني الفتك والأخذ بالشدة والعنف والسطوة،

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٧.
(٢) السابق ٣٠ / ٢٤٠.

والمعاقبة بالقوة والغلظة والغلبة، والتناول بشدة وقهر عند الصولة[1]، هذا بالإضافة إلى ما في وصف البطش بالشدة من المبالغة الدالة على تضاعفه وتفاقمه وشدته وقوته.

وفي التعبير بالربوبية " ربّك " إشارة إلى رحمة الله – ﷻ – وحياطته بنبيه – ﷺ – برعايته وعنايته وتربيته وحفظه له، ونصره إياه، هذا بالإضافة إلى ما توحي به من أن انتقام الله – ﷻ – مشوب برحمته، وأن رحمته سبقت غضبه.

وفي إضافة البطش – وهو الأخذ بعنف وقوة وقهر – إلى الربّ – والمربّي لا بدّ أن يكون عالمًا وحاسمًا ورحيمًا في وقت واحد – إشارة إلى أن هذا البطش لا بدّ منه، وأنه عين الحكمة، ونهاية الرحمة، حيث إنه– ﷻ – مع كونه شديد البطش غفورٌ ودودٌ، كما أن الطبيب العالم الماهر – ولله المثل الأعلى – حينما يقرر بَتْر عضو من أعضاء المريض خشية أن يتفاقم المرض يكون تقريره هذا رحمة بالمريض، فهي محنة في طيّها منحة، وقسوة في طيها رحمة، وتلك هي الحكمة البالغة.

وجاء التعبير بالإظهار في " بطش ربّك " بدلًا من الإضمار في " بطشه "؛ لأن هذه الجملة المستأنفة تؤسس معنى مستقلًا، فهي أشبه – ولكلام الله – ﷻ – المثل الأعلى – بالقاعدة الكبرى الكلية، أو القانون المستقل الذي يسري وينطبق على كل من يستحقه في كل زمان ومكان.

وفي توجيه الخطاب إلى النبي محمد – ﷺ – إيذان بأن لكفار قومه نصيبًا موفورًا من هذا البطش الشديد[1]، و " لأن بطش الله – ﷻ – بالذين فتنوا المؤمنين فيه نصر للنبي – ﷺ – وتثبيت له"[2].

---

(٣) لسان العرب / مادة : بطش.

(١) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٨، روح المعاني ٣٠ / ٩١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٨.

وجاء الله – ﷻ – بالخبر الإنكاري " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ " مؤكَّدًا بـ " إن "، واللام، واسمية الجملة لمواجهة ما عليه الأعداء الكفار الظلمة من الإنكار، وتثبيتًا للمعنى في قلب النبي ﷺ، الأمر الذي يجعله مطمئنًّا بنصره له، واثقًا بتأييده وعونه جلّ في علاه.

ووردت جملة " إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ " مستأنفة استئنافًا بيانيًا أيضًا، وفصلت عن جملة " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ " لما بينهما من شبه كمال الاتصال، وكأن سائلًا سأل وقال : ما الدليل على شدة بطشه ﷻ ؟ فجاءت جملة " إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ " جوابًا عن هذا السؤال، إذ من كان مقتدرًا على الإبداء والإعادة إذا بطش كان بطشه في غاية الشدة، وجاء الفصل هنا لما بين الجملتين من قوة ترابط تشبه قوة ترابط الجواب بالسؤال.

وجاء الخبر الإنكاريّ هنا مؤكدًا بـ " إن " وضمير الفصل " هو " لتأكيد إثبات مضمونه، وترسيخه في نفس المخاطب، وتقويته وتحقيقه في ضمير المتلقي، إذ إن الإبداء والإعادة قد ينكرهما من لا يؤمن بقدرة الخالق القادر جلّ في علاه.

وليس في ضمير الفصل هنا دلالة على القصر؛ لأنه ليس في المقام هنا ردٌّ على من يدّعي أن غير الله – ﷻ – قادر على أن يبدئ ويعيد.

وفي الجمع بين الإبداء والإعادة طباق بديع، حيث أثبت لله – ﷻ – الشيء وضده، فهو – ﷻ – يبدئ الخلق بالإيجاد والإنشاء في الدنيا، ويعيده بالبعث والحشر في الآخرة، أو يبدئ البطش بالكفرة في الدنيا ثم يعيده في الآخرة، حيث إنهم يحسبون أنهم في أمن من العقاب؛ إذ هم لا يصدقون بالبعث، فحسبوا أنهم فازوا بطيب الحياة الدنيا، أو يبدئ كل ما يُبْدَأ ويعيد كل ما يُعاد بلا ممانع ولا مدافع ولا منازع، وبلا دخل

لأحد في شيء منهما، ومن كان كذلك كان بطشه في غاية الشدة[١]، وفي هذا الطباق لون من ترابط الأسلوب، وتناسق الأفكار، حيث إن الضد يكون أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، هذا بالإضافة إلى ما فيه من تثبيت المعنى في النفس، وتأكيده في الذهن، حيث إن الذهن عند ذكر الضد الأول يكون مهيّأً لتلقي الآخر، ومستعدًا له، فإذا ورد عليه بعد هذه التهيئة وذلك الاستعداد ثبت فيه، وتأكد لديه، والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء.

وحُذِفَ مفعولا الفعلين " يُبْدِئُ " و " يُعِيدُ " " لقصد عموم تعلق الفعلين بكل ما يقع ابتداء، ويعاد بعد ذلك، فشمل بَدْء الخلق وإعادته، وهو البعث، وشمل البطش الأول في الدنيا والبطش في الآخرة، وشمل إيجاد الأجيال وأخلافها بعد هلاك أوائلها. وفي هذه الاعتبارات من التهديد للمشركين محامل كثيرة"[٢].

وجاء التعبير بصيغة المضارع في هذين الفعلين للدلالة على التجدد والحدوث الاستمراري، فكلٌّ من الإبداء والإعادة أمران متجددان، ويصدران من الله – ﷻ – باستمرار شيئًا فشيئًا، وحالًا بعد حال، وآنًا بعد آن، وهكذا كل يوم هو في شيء.

ولقد جاءت هذه الآية " وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ " بعد ما يدل على شدة بطش الله – ﷻ – وكمال قدرته للدلالة على أن الله – ﷻ – هو الفاعل المختار، وأنه له القدرة المطلقة، وأنه شديد العقاب، وأن عذابه هو العذاب الأليم، وأنه أيضًا غفور رحيم حليم ودود، وأن رحمته وسعت كل شيء؛ لأنه من المعهود في الطباع والمركوز في النفوس أن القادر عل العنف قد لا يقدر على اللطف، وإن قدر فربما لم يقدر على الإبلاغ في ذلك، ولم يقدر أيضًا على محو الذنوب أعيانها وآثارها عن كل أحد بحيث لا يحصل

(١) روح المعاني ٣٠ / ٩١.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٨.

لصاحبها عقاب ولا عتاب، فسبحان من له القدرة المطلقة يعذب من يشاء، ويرحم من يشاء !!![1]

وفي مجيء جملتي " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ " و " وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ " بعد قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ، إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ " لفّ ونشر، فجملة " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ " تعليل لمضمون جملة " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ "، وجملة " وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ " تعليل لمضمون جملة " إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ"[2]، وفي هذا اللون البديعي لون من إثارة الفكر، وتنشيط العقل، وتشويق النفس بردّ كلٍّ إلى ما هو له اعتمادًا على القرائن، هذا بالإضافة إلى ما فيه أيضًا من ترابط أجزاء الكلام، وتلاحم عناصره، وتماسك أبعاضه.

وعُطِفَتْ جملة " وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ " على جملة الاستئناف " إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ "؛ لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين باتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى، هذا مع وجود المسوّغ، وهو كون المسند إليه فيهما واحدًا، وكونهما اسميتين، وكون مضمونيهما دالّين على عظمة الخالق وجلالته ﷻ.

وجاء التعبير بصيغة المبالغة " الْغَفُورُ " للدلالة على كثرة مغفرته، حيث يغفر – ﷻ – لمن يشاء من المؤمنين سواء تاب المغفور له قبل موته أم لم يتب، وهذا أليق

(١) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٢.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٩.

بالتمدّح لله – ﷻ – وأولى بالثناء عليه، وكذلك " الْوَدُودُ " – على وزن فعول بمعنى فاعل، أي : الوادّ بمعنى المُحِبّ – للدلالة على كثرة المودة والمحبة، ووَفْرة الإحسان والإنعام من رب العزة – ﷻ – لعباده المؤمنين الطائعين.

وقيل : يجوز أن يكون " الْوَدُودُ " هنا فعولًا بمعنى مفعول مثل : رَكُوب وحَلُوب، أي : أن عباد الله – ﷻ – الصالحين يَوَدُّونه ويُحِبُّونه لما أسبغ عليهم من آلائه ونعمه، ولما أنعم عليهم من جوده وكرمه، ولما عرفوه من فضله وجلالة ذاته، ولما اتسع عليهم من فنون بره وإحسانه(١).

ولا مانع – والله أعلم – من جواز الاحتمالين، يقول ابن قيّم الجوزية : " والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين معًا، على كونه وادًّا لأوليائه، ومودودًا لهم، فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم، فهو الحبيب المُحِبّ لأوليائه يحبهم ويحبونه"(٢).

وفي اقتران " الْوَدُودُ " بـ " الْغَفُورُ " دلالة على سعة كرم الله – ﷻ – وإحسانه، وكثرة جوده وإفضاله، حيث لم يغفر لعبده العاصي فقط، بل يغفر له ويحبه، يقول ابن القيم : " ما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم بالغفور ! فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب – تعالى – يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوّابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان"(١).

ووصف الله – ﷻ – بـ " الْوَدُودُ " بمعنى المُحِبّ على سبيل المجاز، حيث شُبِّهَ إنعام الله – ﷻ – وإكرامه وتفضله ورحمته وإحسانه بالمودة، ثم حُذِفَ المشبه، وصُرِّحَ بلفظ المشبه به، وهو المودة، واشتق منه " الْوَدُودُ "، فالمودة هنا مستعملة في

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٥، حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦٢، روح المعاني ٣٠ / ٩٢.
(٢) التبيان في أقسام القرآن / ٦٣.
(١) السابق / نفس الجزء والصفحة.

لازمها؛ لأن " المحبة بالمعنى الحقيقي لا يوصف بها الله تعالى"[٢]، وإنما " المحبة التي يوصف الله بها مستعملة في لازم المحبة في اللغة تقريبًا للمعنى المتعالي عن الكيف، وهو من معنى الرحمة"[٣].

وبعد أن ذكر الله – ﷻ – من صفاته ما يتعلق بمخلوقاته بحسب ما يستأهلون من جزاء أعقب ذلك ببعض صفاته الذاتية على وجه الاستطراد والتكملة بقوله : " ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) " تنبيهًا للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله كما يعبدونه لاتقاء عقابه ورجاء نواله.

وقد خَصَّ الله – ﷻ – " العَرْش " بالذكر، وأضافه إلى نفسه كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الجليلة الشريفة، وفي هذا دلالة بالغة على عظمة العرش، وغاية قربه من الله – ﷻ – واختصاصه به بحيث لا ينازع أصلًا في اختصاصه به تشريفًا له، وتنبيهًا على أنه أعظم المخلوقات، وذلك كما يضيف إلى نفسه بـ " ذو " صفاته القائمة به مثل : " ذو القُوّةِ " و " ذو الجَلالِ والإكْرامِ"[٤].

والوصف بـ " ذُو الْعَرْشِ " قد يكون على حقيقته، أي : خالقه ومالكه، أي : صاحب السرير الأعلى الأعظم بحيث لا يعرف عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه، وفي اختصاصه – ﷻ – بهذا السرير كناية عن اختصاصه بالمُلْك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة[١]، ولذا يقول الشيخ ابن عاشور مبيّنًا سبب تسمية العرش بهذا الاسم : "

(٢) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٥.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٩.
(٤) المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٣ / ابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م، التبيان في أقسام القرآن / ٦٣.
(١) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٣.

سُمِّيَ عَرْشًا؛ لأنه دالّ على عظمة الله – تعالى – كما يدل العَرْش على أن صاحبه من الملوك"(٢).

وقد يكون هذا الوصف كناية عن الملك والسلطان " فإنهم يكنون بالعرش عن الملك لكونه من لوازم الملك، يقال : استولى فلان على العرش وإن لم يجلس عليه، وثُلَّ عرش فلان إذا ذهب سلطانه"(٣).

وجاء الوصف بـ " ذُو " دون " صاحب " التي بمعناها؛ لأن الوصف بها أبلغ وأدلّ على التمكين والهيمنة والامتلاك، فكل منهما دالّ على الملازمة، لكن الملازمة في " ذُو " أطول وأدوم، وذلك بخلاف " صاحب " فالملازمة فيها محدودة تطول أو تقصر، ووصف الله – ﷻ – بأنه " ذُو الْعَرْشِ " يفيد التمكين والهيمنة والامتلاك للعرش على سبيل التأبيد والدوام والاستمرار ، والإضافة بها أشرف؛ لأنها تضاف إلى التابع مثل : ذو المال، وذو الفرس، وصاحب تضاف إلى المتبوع مثل : أبو هريرة صاحب النبي ﷺ، ومن المعلوم أن العرش تابع لذات الله – ﷻ – والإضافة إليه دالّة على التفخيم والتعظيم والتشريف(٤).

وقراءة " ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ " – برفع المجيد – على أنه خبر رابع لضمير الجلالة " هو "، وفي هذا دلالة على كثرة صفات كمال الله – ﷻ – وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وإحاطته بها، كما فيه دلالة على سعة أفعاله، وكثرة خيره وفيضه ودوامهما، فالله – ﷻ – عظيم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، واجب الوجود، تام القدرة، كامل العلم والحكمة جَلَّ في علاه.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٤٩.
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦٢.
(٤) البرهان في علوم القرآن ١/١٦٢، ٤/ ٢٧٩ / الزركشي / تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم /دار التراث / القاهرة / الطبعة الثالثة / ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

وقُرِئَ بالجر " الْمَجِيدِ "على أنه صفة لـ " رَبِّكَ "، أو أنه صفة لـ " الْعَرْشِ"[١]، وفي هذا كناية عن مجادة الله – ﷻ – وعظمته؛ لأنه – ﷻ – إذا كان عرشه مجيدًا كان – ﷻ – أحقّ بالمجد وأجدر، ومجادة العرش علوه وعظمته وسعته وحسنه وبهاؤه.

وبعد أن وصف الله – ﷻ – نفسه بأنه " هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) " ذَيَّلَ هذه الصفات الأربع بصفة جامعة لعظمته الذاتية وعظمة نعمه بقوله تعالى : " فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) "، وختم بها هذه الصفات؛ لأنها " كالنتيجة للأوصاف السابقة"[٢].

وجاء هذا الوصف " فَعَّالٌ " بصيغة المبالغة للدلالة على أن ما يريده الله – ﷻ – ويفعله غاية الكثرة في الكمية والكيفية[٣]، وفي التعبير بصيغة الاسم بدلًا من الفعل " يفعل " دلالة على أن فعل الله – ﷻ – لما يريده أمر ثابت ودائم ومستمر؛ لأن ذلك من كماله، والله – ﷻ – ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله، ولا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

وفي تنكيره لون من التفخيم تتقاصر أمامه الألباب والأفهام، و ضرب من التعظيم تتلاشى عنده العقول والأوهام، وفي التعبير باسم الموصول " ما " دلالة على العموم، حيث لا يمتنع عليه – ﷻ – مراد من أفعاله وأفعال غيره، فهو – ﷻ – " يفعل ما يريد على ما يراه، لا يعترض عليه أحد، ولا يغلبه غالب، فيدخل أولياءه الجنة

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٥، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٨.
(٢) الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٧ / سليمان الجمل / المطبعة العامرة الشرفية /مصر / ١٣٠٣ هـ.
(٣) الكشاف ٤ / ٧٣٣، البحر المحيط ٨ / ٤٤٥، والتحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٠.

لا يمنعه مانع، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر، ويمهل العصاة إلى ما يشاء إلى أن يجازيهم، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء، فهو يفعل ما يريد"(١).

والمقصود بالإرادة هنا هي الإرادة الكونية القدرية المرادفة للمشيئة، والتي لا بد أن تقع، وإنما عبّر – ﷻ – هنا بالإرادة بدلًا من المشيئة؛ لأن " الإرادة تكون لما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لما يتراخى وقته"(٢)، وقيل : إن الإرادة هي العزم على الفعل أو الترك بعد تصور الغاية المترتبة عليه من خير أو نفع أو لذة ونحو ذلك، والمشيئة هي ابتداء العزم على الفعل، وقد يحول دون وقوعها مانع عقلي أو شرعي، أما الإرادة فمتى حصلت صدر الفعل لا محالة، وقد يطلق كل منهما على الآخر توسعًا(٣).

وجاء التعبير بصيغة المضارع " يُرِيدُ " للدلالة على التجدد الاستمراري، فإرادة الله – ﷻ – تتحدد حالًا فحال، وآنًا فآن، يرفع واحدًا، ويضع آخر، ويعطي هذا، ويحرم ذاك، هذا بالإضافة إلى إثبات تعدد الإرادة بحسب الأفعال، فلكل فعل إرادة تخصه، وهكذا كل يوم هو في شأن، دون أن يشغله شأن عن شأن، سبحانه جلّ في علاه.

واقترن الفعل هنا بالإرادة؛ لأن " فعله – ﷻ – وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده،

(١) الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٧.

(٢) الفروق اللغوية / ١٢٤ / أبو هلال العسكري / تحقيق : محمد إبراهيم سليم / دار العلم والثقافة / القاهرة / بدون تاريخ.

(٣) معجم الفروق اللغوية / ٣٥ / أبو هلال العسكري / تحقيق : بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي / مؤسسة النشر الإسلامي / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ.

بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد بفعل ما لا يريد، فما ثمّ فعّال لما يريد إلا الله وحده"[١].

وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف، حيث إن لفظة " فَعَّالٌ " خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير : هو فَعّال لما يريد، وفي هذا الحذف دلالة على تحقيق الوصفين : البطش بالأعداء، والمغفرة للأولياء، وزيدت اللام في " لِمَا " للتقوية والتوكيد.

وجاءت هذه الصفات الخمس "الْغَفُورُ"، "الْوَدُودُ"، "ذُو الْعَرْشِ"، "الْمَجِيدُ"، "فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ " بدون عطف؛ لأن المقصود هنا هو إثبات هذه الصفات الخمس لله – ﷻ – مجتمعة، وفي هذا إشارة إلى أن الله – ﷻ – جامع لهذه الصفات، ومتصف بها مجتمعة، وكأنها صفة واحدة، وذلك كمال فوق كمال.

❁❁❁❁

(١) التبيان في أقسام القرآن / ٦٥.

المبحث الرابع
تسلية للرسول - ﷺ - وموعظة للمؤمنين

قال تعالى: " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) ".

فبعد أن ذكر الله – ﷻ – ما دل على شدة بطشه، وكمال قوته، وطلاقة قدرته، وتمام حكمته، وجلال عظمته، قرر هنا بعض ما حدث للأمم السالفة تسلية للنبي – ﷺ – وتأنيسًا له، وتخويفًا وتحذيرًا وإبعادًا لقومه، وعظة لأمته؛ لأن النظر في المحسوسات أمكن في النفوس، وأثبت في الأذهان.

والاستفهام في هذه الجملة " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ " للتقرير، أي تقرير لحال الكفرة، ولكونه – ﷻ – فَعّالًا لما يريد، ولشدة بطشه بالظلمة العصاة الطغاة العتاة، ولتسلية النبي– ﷺ – وإشعاره بأنه سيصيب كفرة قومه ما أصاب هؤلاء الجنود [١].

ويحتمل أن تكون " هل " هنا بمعنى " قد "، أي قد أتاك يا محمد – ﷺ – خبر هذه الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، ثم بَيّنه – ﷻ – بعد ذلك بقوله : " فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ"[٢].

ويجوز أن يكون للتعجيب[٣] أي للتعجيب من حال فرعون وثمود وما كان منهم من ظلم وطغيان رغم وجود الآيات، ووضوح المعجزات التي جاءتهم على يدي موسى وصالح عليهما وعلى نبينا وجميع الأنبياء أفضل الصلاة، وأزكى السلام.

(١) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٩، روح المعاني ٣٠ / ٩٣.
(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦٢.
(٣) الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٨.

ويجوز أن يكون لإرادة التهويل من حديث الجنود، وكأنه شيء هائل عظيم يستحق أن يسأل عنه، وفي هذا تعريض توبيخي للمشركين بأنهم قد نبذوا الله – ﷻ – وراء ظهورهم، وأنهم قد ينزل بهم ما نزل بهؤلاء الطغاة العتاة الجبابرة(١).

ويحتمل أن يكون للنفي، أي إنه لم يأتك حديث الجنود، وسنقصه عليك فيما سينزل عليك من آياتنا بعد، وفي هذا ما يبعث على التشوق إلى هذا الحديث العجيب، والتطلع إليه، وانتظاره في لهفة وترقب (٢).

ويحتمل أن يكون على حقيقته، ويكون النبي – ﷺ – قد أعلمه ربه – ﷻ – قبل ذلك حديثًا عن فرعون وثمود وما أخذهم الله – ﷻ – به من عذاب ونكال، وعلى هذا يكون الجواب محذوفًا تقديره : نعم أتاني حديث فرعون وثمود(٣)، وفي هذا الحذف ضرب من الإيجاز ولون من الاختصار، الأمر الذي يجعل الأسلوب خاليًا من الثقل والترهّل الذي يثقل كاهله.

ويحتمل أن يكون للتشويق وإثارة ذهن المتلقي إلى ما يلقى بعده من كلام، وجاء التعبير بالأداة " هل " وأوثرت من بين أدوات الاستفهام لتحقيق الغرض الذي من أجله سيق الاستفهام، وهو الالتفات التام لسماع ما يقال، فهي أشبه بقرع العصا، حيث إنها صوت لا يقصد لذاته، وإنما لما بعده(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٠.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٦ / ١٥١٨ / عبد الكريم الخطيب / دار الفكر العربي / القاهرة / بدون تاريخ.

(٣) السابق / نفس الجزء والصفحة.

(٤) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ٤ / ٣٥٤ / د / عبد العظيم المطعني / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثالثة / ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م.

وأيًّا كان الغرض من هذا الاستفهام – والنكات البلاغية لا تتزاحم والقرآن الكريم حمّال أوجه – فإننا نجد في طيّاته ضربًا من الإثارة والتشويق إلى معرفة المستفهم عنه، وتهيئة المخاطب لتلقيه وتقريره في نفسه، وتثبيته لديها، وترسيخه في وجدانه؛ لأنه جاء بعد تهيئة وتشويق لمعرفته، والشيء إذا جاء بعد تمهيد له وتقديم، ونِيلَ بعد تشويق وتطلع إليه، وتهيئة له، كان أوقع في النفس وأثبت وآكد.

وفي الفعل " أَتَى " استعارة تصريحية، حيث شبه السماع بالإتيان، ثم حذف المشبه، وصرح بلفظ المشبه به، واشتق منه " أتى " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وفي هذا تعظيم لبلوغ الخبر، وتفخيم لشأن السماع، وتصوير له وهو أمر محسوس قوي بصورة أمر محسوس آخر أقوى منه.

وظاهر الخطاب في " أَتاكَ " للرسول – ﷺ – ولكنه مصروف لغير معين ممن يراد موعظته من المشركين تذكيرًا بخبر أولئك الجنود، وتعجيبًا من حال المشركين في إعراضهم عن الاتعاظ بذلك(١).

وفي إسناد الإتيان إلى " حَدِيثُ " استعارة مكنية " حيث شبه الحديث بإنسان، ثم حذف المشبه به، وأتي بشيء من لوازمه وهو الإتيان، وأثبته للمشبه، وفي هذا ضرب من التصوير، ولون من المبالغة في تحقيق السماع، حيث جعلت الاستعارة الحديث يأتي، وفي إثبات الإتيان للحديث نوع من التخييل.

وفي تنكير لفظة " حَدِيثُ " دلالة على التفخيم والتهويل والتعظيم، فخبرهم عظيم، ونبأهم عجيب، وشأنهم فظيع هائل يستحق الوقوف عنده، ويستأهل التأمل فيه، وإضافته إلى " الْجُنُودِ " للدلالة على الاختصاص، أي الحديث المختص بهؤلاء الجنود.

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٠.

وفي التعبير بلفظ " الْجُنُودِ " استعارة تصريحية[١]، حيث شبه الأمم المقاومة للرسل بالجنود المتجمعة للقتال، ثم حذف المشبه، وصرح بلفظ المشبه به، وفي ذلك إشارة إلى أن هؤلاء القوم ذوو بأس وقوة كبأس أبطال الحرب وقوتهم، وأنهم في حرب مع أولياء الله ﷻ، وقال سيد قطب – رحمه الله تعالى – مبينًا العلة من تسمية القرآن الكريم لهم بالجنود : " ويسميهم الجنود إشارة إلى قوتهم واستعدادهم"[٢].

وأبدل " فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ " من " الْجُنُودِ " بدل كلٍّ من كلٍّ، وذلك على تقدير مضاف محذوف لتحقيق المطابقة بين البدل والمبدل منه في الجمعية، أي : جنود فرعون[٣]، ونكتة حذف هذا المضاف هي المزاوجة بين اسمين علمين مفردين في الإبدال من الجنود[٤]، أو أنه اكتفي بذكر فرعون، والمراد فرعون وقومه، واستغني بذكره عن ذكرهم لأنهم جنده وتُبّاعه[٥]، وفي كلتا الحالتين ففي هذا الحذف ضرب من الإيجاز، ولون من الاختصار، وفي ذلك البدل نوع من البيان والتوضيح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، والتوكيد بعد الإخبار.

وخُصَّ فرعون وثمود بالذكر من بقية الأمم التي كذّبت الرسل مثل عاد وقوم تُبَّع وقوم نوح وقوم شعيب؛ لأنهما كانا أشد من غيرهما بغيًا وظلمًا، ولأن قصتيهما كانتا معروفتين لأهل مكة أكثر من غيرهما، ولتداولهما على الألسنة ومعلوميتهما، فقصة ثمود كانت مشهورة عند العرب، وقصة فرعون كانت مشهورة عند أهل الكتاب وعند

(١) السابق ٣٠ / ٢٥١.
(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٧٦.
(٣) البحر المحيط ٨ / ٥٤٤، التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥١.
(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥١.
(٥) المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٣، حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦٣، روح المعاني ٣٠ / ٩٣.

العرب الجاهلية أيضًا، وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك، فدل بقصته وقصة ثمود على أمثالهما من قصص الأمم المكذبة وهلاكها[١]، وجمع الله – ﷻ – بهما بين العرب والعجم[٢]، وذلك لعل أهل مكة يتعظون بما حل بهما، ويرعوون ويرتدعون عمّا هم عليه.

وكذلك – بالإضافة إلى ما سبق – أن تخصيص ثمود بالذكر من بين بقية الأمم المكذبة للرسل وتأخر ذكره مع تقدمه على فرعون زمانًا أمر اقتضته الفاصلة السابقة الجارية على حرف الدال، ولما استقامت الفاصلة بذلك، ولم يكن في ذكره تكلف كان إيثاره من محاسن النظم، واختياره من بدائع السبك ومحاسن النَّظْم[٣].

ولما لم ينزجر أهل مكة ويتعظوا بما حلّ بالأمم السابقة التي كذبت أنبياءهم وآذوهم أضرب الله – ﷻ – عن مماثلتهم لهم، وعن تأميل رسوله – ﷺ – بإيمان من لم يقدر له الإيمان من كفرة قومه، وكأن الله – ﷻ – يريد أن يقول لنبيه : ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك، بل إن أمر قومك أعجب من أمرهم، لأن قومك مع علمهم بحال فرعون وثمود وما صدر عنهم من التمادي في الكفر والضلال والطغيان، وما حلّ بهم، وجرى عليهم من العذاب والنكال لم يعتبروا بهم، ولم ينزجروا عن غيّهم، ولم يرتدعوا عن ضلالهم، ولم يرعووا عن جهلهم وكفرهم[١]، فهم مستمرون على التكذيب، ومنغمسون فيه، وحالهم أشد من حالهم في استحقاق العذاب، واستيجاب

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٢ / ١٩٨ / القرطبي / تحقيق : د / عبد الله عبد المحسن التركي / مؤسسة الرسالة / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦م.
(٢) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٥.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥١.
(١) الكشاف ٤ / ٧٣٣، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٩، عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٥، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٨، روح المعاني ٣٠ / ٩٣.

العقاب، وفي هذا الإضراب الانتقالي للأشد ضرب من الترقي، ولون من التدرج في عرض الأفكار، ونوع من الحركة والحيوية للأسلوب.

وفي التعريف بالموصولية " الَّذِينَ كَفَرُوا " دلالة على سببية الخبر " فِي تَكْذِيبٍ " حيث إن الكفر هو الذي أوردهم هذا المورد الآسن، وأوصلهم إلى هذا المسلك الهالك.

وفي قوله – تعالى – : " فِي تَكْذِيبٍ " استعارة مكنية؛ لأن التكذيب لا يصلح للظرفية الحقيقية، فشبه مطلق الارتباط بين الذين كفروا والتكذيب بمطلق الارتباط بين الظرف والمظروف بجامع التمكن، ثم استعير لفظ " في " وهو جزئية من جزئيات المشبه به، واستعمل في المشبه، وفي هذه الاستعارة دلالة على استمرار هؤلاء الكفار في التكذيب، وانغماسهم فيه انغماس المظروف في الظرف، وتمكّن التكذيب من نفوسهم تمكّن الظرف من المظروف، وإحاطته بهم إحاطة البحر بالغريق فيه، بحيث لا يترك لعقولهم مسلكًا لتذكر ما حلّ بأمثالهم من الأمم، ولا يستطيعون الانفكاك عنه، ولا يقدرون على الخروج منه، وأنى لهم بالانفكاك والخلاص وهم فقط يتبعون أهواءهم، ويقلدون آباءهم؟!![٢].

ويحتمل أن يكون المجاز في هذه الآية على سبيل المجاز المرسل علاقته الحالّيّة؛ لأن التكذيب معنى من المعاني، ولا يحل الإنسان فيه، وإنما يحل في مكانه،

(٢) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٥، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٨، روح المعاني ٣٠ / ٩٣.

فأطلق الحالّ وهو التكذيب، وأريد المحل وهو المكان، وكأن التكذيب لشدته أحاط بهم إحاطة البحر بالغريق، والسوار بالمعصم(١).

ويؤازر دلالة المجاز في هذه الآية – سواء كان استعارة مكنية، أو مجازًا مرسلًا – تنكير لفظة " تَكْذِيبٍ " الدال على تعظيم هذا التكذيب وتفخيمه وتهويل أمره، والموحي بأن هؤلاء الكفرة بلغوا فيه حد الغاية، ووصلوا إلى النهاية، فهم يكذبون كل ما جاءهم به الرسول – ﷺ – رغم وجود الآيات، ووضوح الأدلة، وظهور البراهين، فهم عن دعوته صمّ بُكْم عُمْي لا يعقلون.

وحُذِفَ متعلق التكذيب هنا لظهوره ووضوحه من المقام، والتقدير: أنهم في تكذيب بالنبي – ﷺ – والوحي المنزل إليه، ورسالته التي يدعو إليها(٢).

وعطفت جملة " وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ " على جملة " الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ"؛ لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين باتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى، هذا بالإضافة إلى وجود المسوغ للعطف، وهو دلالة الجملتين على التمكن والإحاطة، فجملة " الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ " تدل على تمكن الكذب من الكفار وإحاطته بهم، وجملة " وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ " تدل على إحاطة عقاب الله – ﷻ – بهم، وتمكنه منهم بحيث لا يفلتون منه، وقوبل جزاء إحاطة التكذيب بالكفار بإحاطة عذاب الله – ﷻ – وعقابه بهم جزاء وفاقًا، وفي هذا من الوعيد والتهديد والتخويف ما لا يخفى على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد(١).

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ١٠ / ٤٣٦ / محيي الدين درويش / دار الإرشاد للشئون الجامعية / حمص / سورية، دار اليمامة / دمشق / بيروت، دار ابن كثير / دمشق / بيروت، الطبعة : الرابعة، ١٤١٥ هـ.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٢.

(١) السابق / نفس الجزء والصفحة.

وفي هذه الجملة " وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ " استعارة تمثيلية، حيث شبه اقتدار الله – ﷻ – على إهلاك الكفار، ومعاجلتهم بالعذاب، وعدم نجاتهم من بأسه؛ لكونهم في قبضته بعدم فوت المحاط المحيط لانسداد المسالك عليه، وعدم وجود منفذ يهرب منه، ثم حذفت الصورة الدالة على المشبه، واستعيرت الصورة الدالة على المشبه به للمشبه(٢).

وفي هذا إشارة إلى علم الله – ﷻ – بهؤلاء الكفار، واقتداره عليهم، وأنهم في قبضته بحيث لا يعجزونه، ولا يفوتونه بوجه، ولا يفلتون من عقابه.

وحمل محيي الدين شيخ زاده هذه الاستعارة التمثيلية على أنها تشبيه بليغ، فقال : " وقوله – تعالى – : " وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ " من باب التشبيه البليغ"(٣)، وقد جانبه الصواب هنا؛ لأن التشبيه لا بدّ فيه من ذكر طرفيه : المشبه والمشبه به، والمذكور هنا هو طرف واحد، وهو صورة المشبه به؛ ولذا فهذا استعارة تمثيلية، وليس تشبيهًا بليغًا.

وتحتمل هذه الجملة أن تكون كناية عن قرب إهلاك هؤلاء الكفار، وذلك كقوله – تعالى – : " وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ "(٤)، فهو عبارة عن مشارفة الهلاك(٥).

وفي هذه الجملة أيضًا – بالإضافة إلى الاستعارة التمثيلية والكناية – تعريض توبيخي للكفار بأنهم نبذوا الله – ﷻ – وراء ظهورهم، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه انهماكهم فيها(١).

---

(٢) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٩، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٨، روح المعاني ٣٠ / ٩٣.

(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٨ / ٥٦٣.

(٤) يونس / الآية : ٢٢.

(٥)الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٣٨.

(١) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨ / ٣٤٥.

وجاء التعبير مُؤْثِرًا لفظ الجلالة " اللَّهُ " لتربية المهابة والخشية في نفوس المخاطبين، وخُصَّ الوراء بالذكر؛ " لأن الإنسان يحمي ما وراءه، ولأنه جهة الفرار من المصائب"(٢).

وفي التعبير بالاسم " مُحِيطٌ " دلالة على الاستمرار والثبوت والدوام، أي أن إحاطة الله – ﷻ – بهؤلاء الكفرة الفجرة ثابتة دائمة بدون انقطاع، وذلك من دلائل القدرة الإلهية.

وأضرب الله – ﷻ – عن شدة تكذيب الكفار للقرآن الكريم وعدم كفهم عنه إلى وصف القرآن بأنه " قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ " تنويهًا بالقرآن الكريم، وإشارة إلى شرفه، ونظمه، وإعجازه، وعلوّ طبقته بين الكتب، وعدم تطرق الريب إليه، وعدم ضرره بتكذيب هؤلاء الكفرة المكذبين، وتأويل المبطلين المعاندين، إذ التنويه به جامع لإبطال جميع تُرَّهاتهم وافتراءاتهم على سبيل الإيجاز، وبناء على ذلك فهذا الإضراب إضراب إبطالي(٣).

ويحتمل هذا الإضراب أن يكون إضرابًا انتقاليًّا، أي أن الله – ﷻ – أضرب عن شدة كفرهم وتكذيبهم، وعدم ارعوائهم وارتداعهم عن ذلك إلى وصف القرآن الكريم بالكرم والحفظ في اللوح المحفوظ (١).

وعبر – ﷻ – عن القرآن الكريم بالإضمار " هُوَ " دون أن يسبق له ذكر صريح " إيذانًا بأنه لعظمه في كل قلب لا غَيْبة له أصلًا"(٢)، فشهرته أغنت عن التصريح باسمه الظاهر.

---

(٢) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٦.
(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي٨ /٣٤٥، الفتوحات الإلهية٤ /٥٣٨، التحرير والتنوير٣٠/٢٥٢.
(١) روح المعاني ٣٠ / ٩٣.
(٢) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٦، ٣٦٧.

ولفظة " قُرْآنٌ " مصدر على وزن " فُعْلان " – بضم الفاء وسكون العين – دالّ على الوحي المنزل من الله – ﷻ – على النبي محمد ﷺ، وفي التعبير به " إشارة عرفية إلى أنه موحى به تعريضٌ بإبطال ما اختلقه المكذبون : أنه أساطير الأولين، أو قول كاهن، أو نحو ذلك"(٣).

ووصف القرآن بأنه " مَجِيدٌ "، أي مجيد بكرمه، وعظمه، وعلو منزلته، وإعجاز نظمه، وسلامة مبانيه، وصحة معانيه، وغير ذلك مما يدل على شرفه وفضله على سائر الكتب، وفي هذا الوصف ضرب من المدح والثناء لهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ووصفه بالمجادة وصف لله – ﷻ – بذلك عن طريق الكناية من باب أولى؛ لأن مدح الكلام مدح للمتكلم.

وقرأ البعض " قُرْآنُ مَجِيدٍ " بالإضافة(٤)، وذلك إما أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته، وهذا أولى لتوافق مدلول هذه القراءة مع مدلول قراءة الرفع، وإما أن يكون على تقدير مضاف محذوف، والتقدير : قرآنُ رَبّ مَجِيدٍ، وفي هذه القراءة يكون المجيد وصفًا لله ﷻ، ووصف الله بالمجيد وصف للقرآن بالمجادة بطريق الكناية أيضًا؛ لأن كلام الله – تبارك وتعالى – من صفته(١).

ثم وُصِفَ هذا القرآن العظيم أيضًا بأنه " فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ "، وفي هذا الوصف دلالة على حفظ القرآن الكريم من التبديل والتغيير والتصحيف والتحريف وكل شبهة وريب في نظمه أو معناه، فلا يضره تشكيك المشككين، ولا تكذيب المكذبين.

و " مَحْفُوظٍ " – بقراءة الجر هذه – صفة لـ " لَوْحٍ "، أي : لوح محفوظ من التبديل والتغيير، ومحفوظ من وصول الشياطين إليه، ومحفوظ من اطلاع الخلق عليه

---

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٣.

(٤) البحر المحيط ٨ / ٤٤٦، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٩.

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٤٦، الدر المصون ١٠ / ٧٤٩، روح المعاني ٣٠ / ٩٣، ٩٤.

سوى الملائكة المقربين، فلا يمسه إلا المطهرون، وحفظ اللوح حفظ بطريق الكناية للقرآن الكريم، وتنويه بشأنه [٢].

وقرأ البعض " مَحْفُوظٌ " (٣) – بالرفع – على أنه صفة ثانية لـ " قُرْآنٌ " فهو محفوظ في القلوب، وذلك بسلامته من التبديل والتحريف، فلا ريب فيه، ولا يلحقه خطأ ولا تبديل، ولا يضره تكذيب المكذبين، ولا إنكار المنكرين، وحفظ القرآن يستلزم أن اللوح المودع هو فيه محفوظ أيضًا.

والناظر في هاتين القراءتين، قراءتي الجر " مَحْفُوظٍ " والرفع " مَحْفُوظٌ " يجد أنه يستلزم من كل واحدة منهما حفظ القرآن الكريم واللوح، فلا جرم حصل من القراءتين ثبوت الحفظ لهما، فأما حفظ القرآن فهو حفظه من التغيير ومن تلقف الشياطين، وأما حفظ اللوح فهو حفظه عن تناول غير الملائكة المُقَرَّبين إياه، أو أن حفظه كناية عن تقديسه[١].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في وصف البروج في بداية السورة بأنها محفوظة في لوح السماء المحفوظ، ووصف القرآن المجيد في آخرها بأنه محفوظ في لوح محفوظ ضَرْبٌ من رجوع ختام السورة على مبتدئها، ولون من تعانق الافتتاح بالمنتهى [٢].

❁❁❁❁

(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ١١٦ / فخر الدين الرازي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٤٦، الدر المصون ١٠ / ٧٤٩ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣٩.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٥.

(٦) نظم الدرر ٢١ / ٣٦٨، ٣٦٩.

الخاتمة

الحمد لله الرحمن، خلق الإنسان، علّمه البيان، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأسلمهم لغة، وأصدقهم لهجة، وبعد،،،

فلقد كان لدراسة القرآن الكريم وأسراره التعبيرية في عرض المعنى عرضًا يتسم بالإعجاز والإقناع والإمتاع أثر واضح في قلوب المخالفين قبل المؤمنين، فكان له فعل السحر في نفوسهم، حتى إن بعضهم قد سجد لبلاغته دون أن يقف على حقيقته، ولله درّ القائل :

شَهِدَ الأَنَامُ بِفضْلِهِ حتى العِدَا * وَالفَضْلُ مَا شَهِدَتْ به الأَعْدَاءُ [1]

وبعد هذه الجولة التي قضيتها مع النظم البلاغي لهذه السورة الكريمة أشعر بأنني أمام بحر لا شاطئ له، وفيض زاخر من آيات الحسن والإبداع الذي يمتاز به كلام الله ﷻ ، وكلما حسبت أنني وصلت إلى النهاية من هذه الرحلة في حقل البيان القرآني المعجز ألفيتني في شوق إلى الاستزادة من هذا المعين الذي لا ينضب، ولكن لكل شيء غاية وأمدًا ينتهي إليه.

وقد حاول هذا البحث أن يقف مع سورة " البروج " وقفة تأمل وتدبر وتذوق؛ ليعرب عن أسرار جمالها، ورموز حسنها، ولطائف بهائها، ودقائق روعتها، وبدائع عظمتها، ومكنونات دفائنها، وقد سار معها بالتحليل والبيان، ثم استقر وقد أسفر عن عدة نتائج وتوصيات من أهمها ما يلي :

١ – أن لغة النص القرآني في مستوى أعلى من لغة البشر، وأنها تستمد علوّها وسموّها من مصدرها الإلهي، وأنها لغة مختارة لا تعدلها لغة أخرى، اكتسبت جلالتها

---

(١) لم اعثر عليه في مصادر اللغة، وهو موجود في كتاب نضرة النعيم ١ / ٤٤٦ / من بحر الكامل / عدد من العلماء / بإشراف الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد / دار الوسيلة / جدة / الطبعة الرابعة / بدون تاريخ.

وعظمتها باعتبارها كلام الله ﷻ، وأن النص القرآني نص مقدس محروس بمعجزة بيانية تشكلت داخل نسق لغوي يحمل رسالة سماوية، وأن معيار الإفادة من النص القرآني ينبغي أن يكون وفق دراسته بوصفه ذروة البيان العربي في فصاحته، وروعة أسلوبه، ودقة نظمه، وطريقته الفنية في التصوير والإيحاء، وأن يكون البحث في أدبية القرآن باعتباره كتاب العربية الأكبر؛ ولذا أوصي الباحثين أن تكون طبيعة دراستهم للنص القرآني في حدود المحافظة على خصوصيته وقدسيته، وأنه تنزيل من رب العالمين، الأمر الذي ينفي المماثلة بينه وبين كلام البشر.

٢- أن ألفاظ القرآن تمتاز بالدقة في الاستخدام، والروعة في الاختيار والتركيب، والقدرة الفائقة على التصوير والإيحاءات مع غاية الحسن والجمال والجزالة والفصاحة، فنجده يستخدم اللفظة المناسبة في مكانها المناسب، كما في قوله تعالى " إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) "، حيث آثر استخدام لفظة " بَطْشَ " وفيها الباء المجهورة، ثم الطاء المقلقلة المفخمة المطبقة، ثم الشين المهموسة المتفشية، وكأن الإطباق في الطاء الذي يعقبه الهمس والتفشي في الشين يتواكب مع دلالة هذه اللفظة على شدة البطش وقوة الأخذ والانتقام المشوب برحمة الخالق جلّ في علاه؛ ولذا أوصي الباحثين بمراعاة البلاغة الصوتية للنص القرآني وأخذها في الاعتبار.

٣ – أن القسم بالشيء يقتضي تعظيمه وتفخيمه، وأنه لا بدّ من وجود مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، هذا بالإضافة إلى وجود مناسبة بين مفردات المقسم به حينما يكون متعددًا كما هو الحال والشأن في بداية هذه السورة الكريمة.

٤ – أن اقتران الإنذار بالبشارة في هذا الكتاب العزيز – وهو أمر جدير بالدراسة – أسلوب قرآني اتبعه القرآن الكريم؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، وذلك يفتح باب الأمل أمام العصاة ليراجعوا أنفسهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويفيقوا من غفلتهم،

ويتوبوا إلى بارئهم، كما يفتح باب الأمل أيضًا أمام الطائعين ليزدادوا، ويغلق باب اليأس والقنوط كما يغلق باب الخداع والغرور، وذلك كما في قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ".

٥ – أن القرآن يعبر عن المعنى الذهني بالصورة المحسوسة فيمنحه الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة شاخصة، وحركة متجددة كما في قوله تعالى : " بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ".

٦– أن للقراءات القرآنية دورًا كبيرًا في إثراء الدلالة، وإمداد الأسلوب بالمعاني المتعددة، والعطاءات المختلفة، والإيحاءات الكثيرة، هذا بالإضافة إلى ما تضفيه عليه من جمال وحسن وبهاء، وذلك كما في قوله تعالى : " قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ " و" قُتِّلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ "، وكما في قوله تعالى : " ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ " و " ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ "، وقوله تعالى : " بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ " و " بَلْ هُوَ قُرْآنُ مَجِيدٍ ".

وبعد هذه الجولة وتلك التطوافة مع هذه السورة الكريمة التي بذلت فيها جهدي – وهو جهد المقل – دون أن آلو جهدًا، أو أدخر وسعًا في إبراز ما تضمنته من وجوه ونكات بلاغية، وما انطوت عليه من أسرار ورموز بيانية، وما اشتملت عليه من بدائع وفرائد جمالية، وفوائد وعوائد تربوية، فإنني لا أستطيع أن أزعم أنني قلت كل شيء، ولكنني اجتهدت ما وسعني الاجتهاد، وحسبي أنني مهّدت الطريق لمن يخوض هذا الخضمّ الزاخر باحثًا عن لآلئه التي حاولت أن أفتح شيئًا من أصدافها، وأكشف عن بعض كنوزها، وهكذا شأن البيان الإلهي الخالد الذي يظل إلى مطلع الشمس من

مغربها يفضي بالغرائب والعجائب، ويفيض بالأسرار واللطائف، فكلما عُرِفَ منه أمر بدا بعده أمور، وكلما كُشِفَ منه سرّ ظهر بعده أسرار ولله در أبي الطيب المتنبي :

إذا لَمْ تُشاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِياتِها... وأَعْضائِها فالحُسْنُ عَنْكَ مَغَيَّبُ [1]

وأخيرًا أدعو الله السميع المجيب أن يجعل هذا العمل صالحًا، ويجعل قصدي به وَجْهَه خالصًا، ويرزقه القبول الحسن في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلَّم على نبيّنا وآله وصحبه أجمعين.

(١) ديوان المتنبي ٤٦٧ / من بحر الطويل / دار بيروت / بيروت / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

ثَـبـَت الـمـصـادر والمراجع

١ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / أبو السعود محمد بن علي العماري / دار إحياء التراث العربي / بيروت / لبنان / بدون تاريخ.
٢ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي / دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان / الطبعة التاسعة / ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م.
٣ – إعراب القرآن وبيانه / محيي الدين درويش / دار الإرشاد للشئون الجامعية / حمص / سورية، دار اليمامة / دمشق / بيروت، دار ابن كثير / دمشق / بيروت، الطبعة : الرابعة، ١٤١٥ هـ.
٤ – البحر المحيط / أبو حيان / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م.
٥ – بدائع الفوائد / ابن قيّم الجوزيّة / إدارة الطبعة المنيرية / مصر / بدون تاريخ.
٦ – البرهان في علوم القرآن / الزركشي / تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم /دار التراث / القاهرة / الطبعة الثالثة / ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.
٧ – البيان النبوي في حديث الغلام والراهب والساحر / د / طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة / وهو بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق / العدد الرابع والثلاثون / ١٤٣٥ هـ – ٢٠١٤م.
٨ – التبيان في أقسام القرآن / ابن القيم / مكتبة المتنبي / القاهرة / بدون تاريخ.
٩ – التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور / الدار التونسية / تونس / ١٩٨٤م.
١٠ – تحفة الأحوذي / محمد بن عبد الرحمن الأحوذي / تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان / دار الفكر / بيروت / بدون تاريخ.
١١ – التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه / د / بسيوني عبد الفتاح فيود / مطبعة الحسين الإسلامية / الطبعة الأولى / ١٤١٤ – ١٩٩٣م.

١٢ – التفسير البسيط / الواحدي / تحقيق : د / محمد صالح الفوزان / ضمن مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / سلسلة الرسائل الجامعية / ١٤٣٠ هـ.
١٣ – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم / د / عبد العظيم المطعني / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثالثة / ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م.
١٤ – تفسير الراغب الأصفهاني / للراغب الأصفهاني / تحقيق ودراسة : د / محمد عبد العزيز بسيوني / الناشر : كلية الآداب / جامعة طنطا / الطبعة الأولى / ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.
١٥ – تفسير القرآن العظيم / لابن كثير / تحقيق : مصطفى السيد محمد، ومن معه / مؤسسة قرطبة / جيزة / مصر، مكتبة أولاد الشيخ للتراث / جيزة / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

١٦ – التفسير القرآني للقرآن / عبد الكريم الخطيب / دار الفكر العربي / القاهرة / بدون تاريخ.
١٧ – التفسير الوسيط / د / محمد سيد طنطاوي / دار نهضة مصر / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٩٩٨م.
١٨ – جامع البيان / للطبري / تحقيق د / عبد الله بن عبد المحسن التركي / دار هجر / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.
١٩ – الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / تحقيق : د / عبد الله عبد المحسن التركي / مؤسسة الرسالة / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦م.
٢٠ – الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه / محمود صافي / دار الرشيد / دمشق / بيروت، مؤسسة الرسالة / بيروت / لبنان / الطبعة الثالثة / ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م.

٢١ – حاشية زاده على البيضاوي / محيي الدين شيخ زاده / تحقيق : محمد عبد القادر شاهين / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.
٢٢ – دراسات جديدة في إعجاز القرآن / د / عبد العظيم المطعني / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م.
٢٣ – دراسات منهجية في علم البديع / د / الشحات محمد أبو ستيت / دار خفاجي / قليوبية / الطبعة الأولى / ١٤١٤هـ – ١٩٩١م.
٢٤ – الدرّ المصون / للسمين الحلبي / تحقيق : د / أحمد محمد الخراط / دار القلم / دمشق / بدون تاريخ.
٢٥ – دلائل الإعجاز / تحقيق : محمود محمد شاكر / دار المدني / جدة، مطبعة المدني / مصر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.
٢٦ – ديوان الأعشى الكبير / شرح وتعليق : د / محمد حسين ، المطبعة النموذجية / بدون تاريخ.
٢٧ – ديوان المتنبي / دار بيروت / بيروت / ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م.
٢٨ – ديوان النابغة الذبياني/ تحقيق : حَمْدُو طَمّاس / دار المعرفة / بيروت / لبنان / ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م.
٢٩ – روح المعاني / الألوسي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الرابعة / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.
٣٠ – السنن الكبرى / النسائي / تحقيق : شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
٣١ – صحيح مسلم / مسلم بن الحجاج النيسابوري / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون تاريخ.

٣٢ – علم المعاني / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار / القاهرة، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
٣٣ – عناية القاضي وكفاية الراضي / شهاب الدين الخفاجي / دار صادر / بيروت / بدون تاريخ.
٣٤ – الفتوحات الإلهية / سليمان الجمل / المطبعة العامرة الشرفية / مصر / ١٣٠٣ هـ.
٣٥ – الفروق اللغوية / أبو هلال العسكري / تحقيق : محمد إبراهيم سليم / دار العلم والثقافة / القاهرة / بدون تاريخ.
٣٦ – فن البلاغة / د / عبد القادر حسين / دار المنار / الطبعة الثانية / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م.
٣٧ – في ظلال القرآن / سيد قطب / دار الشروق / القاهرة / الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون / ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.
٣٨ – الكشاف / الزمخشري / دار الكتاب العربي / بيروت / الطبعة الثالثة / ١٤٠٧ هـ.
٣٩ – اللباب في علوم الكتاب / ابن عادل الدمشقي / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م.
٤٠ – لسان العرب / ابن منظور / دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.
٤١ – المحرر الوجيز / ابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

٤٢ – معجم الفروق اللغوية / أبو هلال العسكري / تحقيق : بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي / مؤسسة النشر الإسلامي / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ.
٤٣ – مفاتيح الغيب / فخر الدين الرازي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.
٤٤ – المفردات في غريب القرآن / الراغب الأصفهاني / تحقيق : مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز / مكتبة نزار مصطفى الباز / مكة المكرمة / بدون تاريخ.
٤٥ – ملتقى أهل التفسير/ شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).
٤٦ – من أسرار اللغة / د / إبراهيم أنيس / مكتبة الأنجلو المصرية / الطبعة السابعة / ١٩٨٥م.
٤٧ – نضرة النعيم / عدد من العلماء / بإشراف الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد / دار الوسيلة / جدة / الطبعة الرابعة / بدون تاريخ.
٤٨ – نظم الدرر / برهان الدين البقاعي / دار الكتاب الإسلامي / القاهرة / بدون تاريخ.
٤٩ – النهاية في غريب الحديث والأثر / ابن الأثير / تحقيق : طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي / المكتبة العلمية / بيروت / ١٣٩٩ – ١٩٧٩ م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٤٤
التمهيد	١٤٩
المبحث الأول: عظمة الله وقدرته	١٥٣
المبحث الثانى: عقاب الظلمة المعتدين وثواب البررة الموحدين	١٧٤
المبحث الثالث: تأكيد الوعيد والوعد السابقين	١٨٨

المبحث الرابع: تسلية الرسول ﷺ وموعظة للمؤمنين	١٩٩
الخاتمة	٢١١
ثبت المصادر والمراجع	٢١٥
فهرس الموضوعات	٢٢٠